أنيس منصور

ديانات أخرى



دياناتٌ أخرى

الطبعة الأولى

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثالثة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

ديانات أخرى

دار الشروق

كَلِمَة أولى[1]

.. لَعَلّ الإنسَان يَجد نفسَهُ هُنَاك !

الناس نيام . فإذا ماتوا انتبهوا – حديث شريف .. فالناس لا يعرفون هذه الحقيقة إلا في مرحلة متأخرة من العمر . وإلا في لحظة باهرة ينكشف فيها الإنسان تماماً .. فما الذي يراه ؟ يرى أنه أمضى عمره كله يدور حول خوف . أو حول أمل ، أو حول طمع أو حول حب .. وأن هذا الذي يدور حوله ، قد سلبه القدرة على الرؤية . وعلى التمييز ... وأنه مسحوب من كل عواطفه إلى الأمام . وأن هذا الانسحاب قد جعله مأخوذاً دائماً .. وجعل طريقه صعباً وعالمه ضيقاً . وإذا أحس بالاختناق . فليس سبب ذلك عيباً في جسمه .. ولكنه هو الذي جعل الجدران قريبة . والسقف أقرب ، وراح يتنفس في هواء حبيس !!

أنظر إلى حياتك كل يوم .. أنظر ولو مرة واحدة .. هات ورقة وقلماً واكتب بالضبط ما الذي تفعله أو فعلته اليوم . لا تخجل إذا أغمضت عينيك وتركت القلم يكتب ثم وجدته يرسم ثوراً يدور في ساقية .. فليس عفريتاً هو الذي كتب لك . هذه هي الحقيقة . أنت تدور تدوخ تذوب تتلاشى أنت لا تدري ما الذي تفعله . ولكنك أعمى . أعميت نفسك .. وليس غيرك أحسن ولا أسوأ حالاً منك .

كلنا نيام . نمشي نياماً . نصحو نياماً . ونرى فيما يرى النائم أننا نفكر وندبر ونحكم ونتحكم .

وليس هذا تخريفاً أو انسياقاً وراء القلم . ولا وراء هذه الكلمات . ولكن هذه حقيقة عندما أدركتها بوضوح . أذهلتني وأخافتني . وملأت باليأس قلبي . ولم أعد أعرف ما الذي أفعله أو الذي أقوله بعد اليوم .. فليس في العمر وقت طويل لكي أفكر وأراجع ما اتخذته من آراء وما اهتديت إليه من حقائق وأنا أعلم أنه أفضل للإنسان أن يريح رأسه ويتوكل .. أن يربط أفكاره كمجموعة من الأغنام ويلفها حول رقبته ويختار له شجرة وينام تحتها حتى يجيء الموت الذي هو النوم الأبدي .. وفي ذلك كفاية . فالعمر لا يتسع للتفكير في كل شيء . ولا أحد اتسع عمره لذلك . وإذا ظل الإنسان يفكر في كل شيء فإنه لن يجد طعاماً ولا شراباً ، وهو لن يجد الطعام والشراب لأنه لن يجد رأساً ولا قلباً ولا معدة وخير له أن يرضى بما اهتدى إليه . وأن يستريح ..

ولكن إذا اكتشف الإنسان أنه يدور حول شيء ..

أو أن في داخله شيئاً يدور . وأنه ، وكل الناس دائرون حول رغباتهم وشهواتهم ومخاوفهم وعقائدهم .

أو أنه لا شيء في هذه الدنيا .

أو أن العالم من حولنا لا يهتم كثيراً إن ضللنا أو اهتدينا .. وأننا هكذا اليوم وغداً وأمس : لا شيء .

وأن الذي يريحنا ويقلقنا ، لا يعني أحداً سوانا ، هان الإنسان على نفسه فانكسرت كبرياؤه وانكمش ظله ، وانحط على الأرض لا يحرك يداً ولا عيناً ولا يهز عقلاً . فلا عمل لمن لا أمل له . ولا معنى لمن لا قيمة له . ولا دنيا لمن لا دين له . ولذلك فإن الله يقول

للإنسان إنه يراه وإنه يراقبه . وأنه سوف يكون به رحيماً إذا أخطأ ، وسوف يفتح له خزائن الثواب وكنوز الرضا إذا أحسن إلى غيره وإلى نفسه وراعى الله الذي يرعاه ، ونصر الله الذي ينصره .. هذا الحوار بينه وبين ربه ، هو الذي يجعل طريقه الطويل قصيراً ، وعذابه العميق هيناً ، وضياعه هداية ، وحيرته يقيناً !

ولا أقول إنني اهتديت إلى كل شيء .. فأين هو الوقت . وأين هو الصفاء . وأين هي لحظات التركيز والإحساس المباشر بكل القيم العليا في الحياة .

كيف أبلغ ذلك والحياة ضوضاء وأرق وقلق وخوف وهوان وعذاب ويأس واضطراب وزحام في الذهاب والإياب ، عند الحياة وعند الموت ـ كيف أرفع رأسي إلى أعلى وقد اعتدت على أن أحنيه لأرى مواطن القدمين وأمسك ما في اليدين ، وأحمي اليدين من أيدي الآخرين ، وأحمي رأسي من أقدام الطاغين الباغين الظالمين الجشعين .. أين يجد الإنسان الراحة وسط هذا الفزع الأكبر الذي هو حياتنا ، ومن يحرص على حياته يتعذب بها ، ومن لا يحرص على حياته يعذبه الآخرون ..

كيف ينظر الإنسان إلىنفسه ليعرف حقيقته وحقيقة هذا الكون والله وراء كل شيء .. كيف !

إن المسافة التي بينه وبين نفسه قد امتلأت بملايين الناس والأشياء . إنها لحظات قليلة عندما يجد الإنسان نفسه أمام نفسه ، وجهاً لوجه . إنها لحظات في نومه الهادئ . أو في مرضه الطويل . أو على فراشه الأخير ..

أو إذا ذهب إلى الأراضي المقدسة فما الذي تستطيعه في أرض

تغطت بقلوب لها أقدام حافية ، وصدور عارية ، وحناجر مدوية ، ورؤوس لامعة ، وعيون دامعة ، وألسنة لا يتعارف بعضها على بعض ..

من الذي وسط الزحام : على المقعد والسرير والرغيف والماء والدواء والظل والدفء يستطيع أن يتأمل ماذا حدث له في حياته ، وما الذي سوف يحدث له ..

لم أكن أسعد الناس .. وإن كنت تمنيت ذلك الإيمان العظيم الذي وصفه الرسول عليه السلام بأنه (إيمان العجائز) . أين هذه البساطة ؟ أين هذا الإحساس المباشر بالله ؟ أين هذا الإيمان الساحق الماحق الباتر الباهر لكل ما قرأت وتعلمت وعلمت ، وقلت وتقولت ، واجتهدت وأجهدت وأجهضت ، وفكرت وفجرت .. أين هذا الذي لا يذوقه الإنسان إلا مرة واحدة في العمر .. إلا لحظة من العمر كله !

ولا أبالغ كثيراً إذا قلت - والله أعلم - إن شيئاً من ذلك قد أحسست به .. ورأيته بوضوح .. كما يكشف لنا البرق شكل السحب وأحجام الجبال وظلال الأشجار .. ويرينا وجوهنا في عيون الآخرين . إن شيئاً من البرق ، إن شيئاً من الضوء ، قد قطع الظلام والظلال والضباب .. وإذا بي أرى نفسي .. ولا أقول رأيت بكل وضوح . ولكن رأيت الذي لم أره . ولم أعرفه . ولا أظن أنني كنت سأعرفه . لو لم أذهب إلى هناك عارياً حافياً طائفاً ساعياً منادياً .. وكنت أحسد الذين يدوسونني ويضربونني في ساقي وذراعي - كأنني لا وجود لي . إنني حسدتهم لأنهم لا يدرون بأحد . إنهم بعيدون عن أجسامهم وأجسام الآخرين .. أما أنا فلم أستطع إلا أن أرى الناس وإلا أن أشم سعيهم الطويل ، وأرى عريهم وأسمع لغاهم ، - إنني اذن لم أنشغل تماماً عن نفسي .. إنني إذن لم أستغرق في كل ما حولي .. إنني لم أكف عن

عادتي القديمة ، عن أسلوبي الطويل في حياتي . إن وظائف جسمي لم تتعطل عن دورها اليومي ..

ولكن أشهد أنه حدث مرة واحدة ، أن أحداً قد شكا من أنني قد صدمته .. ثم شغلتني سعادتي عن الاعتذار له – أخيراً انشغلت عن كل ما حولي ، واستغرقت وغرقت في الذي هو أسمى وأعلى وأبقى وأبهى وأجمل وأجل !

ويطمع كثيراً من يتمنى أن تعيده هذه الرحلة إلى الأراضي المقدسة إلى بطن أمه : جنيناً طاهراً بلا خطايا ، بلا إرادة للشر أو للخير ، الشر لغيره ، والخير كله له . ولكنها لحظات فقط يشعر فيها الإنسان أنه صغير وأنه تافه . وأنه أكثر تعقيداً من هذه البساطة التي حوله . وأنه أقل يقيناً من هذا الإيمان والبرهان الذي حوله . وأن الراحة كل الراحة ، في أن يعتدل فيما يرى ، وفيما يعقل ، وليس في الدنيا أصعب من الاعتدال ، ولذلك فالاعتدال هو أساس الأخلاق التي تريد كل الأديان أن تحققها على الأرض بين الناس ..

وكل شيء قبل ذلك وبعد ذلك : رمز إلى معنى كبير .. الطواف رمز . والكعبة نفسها قلب الإسلام وقلب الدين رمز .. والدعاء حولها رمز . فالله في كل مكان وليس حول الكعبة فقط .. والسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط رمز . والوقوف بعرفات ورمي الجمرات . والدعاء لله هو إعداد وتجهيز للجسم والنفس أن تكون أكثر تركيزاً أو أكثر صفاء وأشد اقتراباً من الله .. وكل شيء يرمز . وما من دين إلا وبه رموز إلى معان أكبر وأبقى . وحتى الذين لا يؤمنون بدين عندهم أيضاً رموز : زعماء وأبطال وتماثيل ومواقع ومعارك وكتب . وكلها رموز صغيرة لمعان أكبر . وهم حريصون على أن تكون أبقى !

ومن العجيب أن اتجاهاً متجدداً في الفكر الأوروبي يطالب بهدم كل الأديان ويقول : لا ماركس ولا المسيح .. ولا شعارات مقدسة !

وهذا الاتجاه الذي ينكر كل شعار يرفع شعاراً ويؤكده ويضعه على رقاب العباد هو : لا ماركس ولا المسيح ! حتى الذين لا يؤمنون بدين لهم دين جديد ، يريدون هدم كل الأديان . والذي يؤمن بماركس يكفر بمحمد والمسيح وبوذا وكونفوشيوس وزرادشت فهو يؤمن بدين جديد . والذي يكون ماركسياً مسيحياً هو يتآمر على محمد فهو يكفر بدين واحد ويؤمن باثنين من الأديان !

فكل إنسان له دين . هذه حقيقة تاريخية وفكرية ودينية أيضاً . وإذا حاول ألا يكون له دين ، فهذا دين جديد .

ولم يكن الفيلسوف الألماني نيتشه يتلاعب بالألفاظ عندما قال عبارته المشهورة : إنني أتقى من يكفر بالله – أي أنه أكثر الناس إيماناً بالكفر بالله !

فهو عندما رفض الدين اتخذ ديناً آخر . ولكنه دين يرفض ويهدم ولا يختار ولا يبني نفساً ولا نفوساً ولا يجمع شعوباً على خير الإنسان في كل مكان !

ولا أقول إنني تعبت في السعي والطواف ، ولا أقول إنني بحثت عن الطعام فلم أجد إلا الشراب ، أو فتشت عن الشراب فلم أجد إلا الطعام .. فقد يسر الله لي كل شيء . ويسر العلم الحديث : الطيارة والسيارة والشوارع المرصوفة والطعام والماء والأمن والعلاج . ولم يبق أمامنا إلا الرمز . وإلا أن نفكر في هذا الذي نفعله بسرعة ، وإلا أن نتأمل ما نرى بين الناس ألوانهم وأسنانهم ، وإلا ما نفعله نحن بين مكان ومكان .. وألا نغمض أعيننا ونلتفت لحظة واحدة إلى أنفسنا ..

ما الذي نفعله .. ما الذي نأكله .. ما الذي أتى بنا إلى هناك .. ما الذي بين الناس والناس ، بين الناس والشيطان ، بين الناس والله .. ما الذي ذهب من العمر وما الذي بقي منه ..

إن كل ما قرأت وتعلمت لم ينفعني في الإجابة عن شيء . لم أجد من كل ألوف الكتب التي أمضيت فيها عمري وأطفأت فيها نور عيني ، وأوجعت فوقها رأسي وظهري ، لم أجد واحداً يقول لي شيئاً يريحني . أو يجعل أيامي أسهل وآخرتي أهدأ .. لا شيء !

إنني لم أكن قريباً إلى نفسي أو إلى أحد أو إلى هذا الحكيم المجهول القوي الذي لا نعرفه والذي هو هناك وهو هنا في كل أحد وفي كل شيء . وماذا بعد ذلك ؟ نحن لا نعرف . ولا أحد يعرف ، ولكن من العدل لأنفسنا ومن الخير لكل الناس ، أن يراعي الإنسان ربه .. وأنت لا تعرف ربك إلا إذا كنت في لحظة واحدة باهرة عرفت هذه الحقيقة : انك قطعت عمرك كله مسحوباً من عقلك وقلبك وغرائزك . وأنك في ساقية تدور وتدوخ وأنك أسلمت نفسك لجلاد هو الليل والنهار هو المال والجاه . والأولاد واللذة والخوف والطمع واليأس والشك .. وأنه لا وقت عندك لكي تفكر في شيء تفعله ، أو سوف تفعله . وأنك لست وحدك كذلك ولكن كل الملايين من الناس من كل لون وكل زمان وكل مكان وكل دين .. فأنت قرص تليفون في أصابع لا تهدأ إلا بالموت .. وإلا في بعض اللحظات عندما تكون قريباً إلى الله ، أو إلى الرموز التي توقفك لحظة لتعرف من أنت .. ومن هو !

إنني لم أقل شيئاً . ولكني فقط لم أسكت عن محاولة القول . إنني لم أختر أنسب الكلمات . ولكني أحاول أن أختار أنسب المعاني . إنني

الآن فقط عذرت الذين انفتحت لهم «طاقة القدر» فنسوا أن لهم لساناً يطلبون به شيئاً من الله . وانقفلت طاقة القدر في وجوههم ودونهم ولم يتحقق لهم شيء . لأنهم لم يطلبوا شيئاً .. وكنا ونحن صغار نتواصى بأنه إذا انفتحت لنا طاقة القدر طلبنا إلى الله بقلوبنا ، دون حاجة إلى الشفتين واللسان ..

وإن قلبي قد امتلأ بالكثير ، ولكن المشكلة هي كيف أنقل هذا الكثير في هذا القليل من الكلمات ومن الحروف .. كيف أعبئ النور واليقين والرهبة والخوف والجلال والجمال والصفاء والبهاء في هذه الحروف السوداء الصغيرة الإلتواء .. كيف ؟ إنه لأمر صعب ..

وإنها لمشكلة العمر كله أن أتخيل نفسي ذلك الإغريقي الذي تفنن الآلهة في تعذيبه .. ذلك المسكين الذي لا أنساه ليلاً أو نهاراً : تنتالوس . لقد حكموا عليه بأن يظل عطشان إلى الأبد جائعاً إلى الأبد .. خائفاً إلى الأبد .. وضعوه في بحيرة ماء عذب تحت أشعة الشمس .. فإذا أراد أن يشرب ارتفع الماء حتى شفتيه ، فإذا انحنى ليرتشف منه شيئاً انحسر الماء حتى قدميه .. وإلى الأبد . وإذا جاع أتت الآلهة بشجرة تفاح وراحت أغصانها تقترب من شفتيه ، فإذا حاول أن يقضمها ابتعد التفاح .. وإلى الأبد .. وإذا أراد أن ينام حملته الآلهة إلى أحد الكهوف وفجأة يسقط حجر ضخم ويتوقف عند شعر رأسه .. وإلى الأبد ! وإذا حاول أن يصرخ ويستغيث انهالت عليه الأحجار والأشجار وأغرقته في الماء ، حتى يسكت !

شيء من ذلك أيها العزيز تنتالوس ولكن بلا ألم ولا خوف ولا جوع ولا عطش .. ولكن فقط أحسست أنني في ضوء غامر ، وفي راحة ساحرة ، وفي صفاء أمين ..

ولولا أنه من الضروري أن أقول ، لطويت نفسي على راحتي ورضاي، واستمتعت بهذه النعمة السابغة وحمدت الله على القليل الذي أعطاني — وليست راحة النفس شيئاً قليلاً !

ولا أعرف ما الذي طلبته من الله بالضبط . إنني توجهت إليه بغير كلام . ولكني لم أنس أن أردد شكوى الرسول حين قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ـ صدق رسول الله .

ولم أنس أن أكرر كثيراً ما كان يقوله الرسول أيضاً : اللهم لا تجعلني قليلاً عليلاً ذليلاً — أن أكون بك كثيراً سليماً كريماً .

إنني أعذر هؤلاء المساكين رواد الفضاء الذين هبطوا لأول مرة على القمر . إن أناساً أعقل منهم عرفوا روعة التجربة المثيرة سوف تجعلهم عاجزين عن التعبير . ولذلك علموهم أن يقولوا هذه العبارة البليغة : هذه خطوة صغيرة لإنسان ولكنها كبيرة للإنسانية !

فاللهم اجعلها خطوة كبيرة أيضاً لغيري من الناس الذين هم نيام في حياتهم ، فإذا ماتوا انتبهوا — أو قبل الموت بقليل !

* * *

وأنا لا أعرض للديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام ، وإنما لديانات أخرى صغيرة جاءت من قبلها ومن بعدها ويؤمن بها كثيرون جداً .. .

ثم إنها لا تخلو من المعاني الكبيرة التي تقوم عليها الديانات الثلاث !

يناير ١٩٨٢ — أنيس منصور

خيط حول كتفه حتّى الموت !

الهندية أو الهندوسية أو الهندوكية أقدم «الديانات» التي اعتنقها الإنسان . ويدين بها أكثر من ٤٠٠ مليون هندي . وهذه «الديانة» ليست ديانة بالمعنى المعروف . فليس لها كتاب واحد ولا نبي واحد ولا إله واحد . والهندوكية هي «أسلوب في الحياة» أو هي «طريقة للحياة الآمنة المسالمة بين الناس .

وقد ظهرت تعاليمها قبل ميلاد المسيح بأربعين أو ثلاثين قرناً . وأدخلت عليها تعديلات كثيرة جداً . واختصرت الآلهة إلى ثلاثة أو أربعة أو سبعة . والهندوكية المعاصرة الآن تختلف بشدة عن الهندوكية في نشأتها . وأهم كتب هذه الديانة كتاب اسمه «فيدا» بأجزائه الأربعة عن الطقوس والإبتهالات والصلوات .. وآخرها كتاب «التعاليم السرية» الفلسفية واسمه «الأوبانيشاد» .. ويوجد بين أيدينا أكثر من ٢٠٠ نسخة متغايرة من هذا الكتاب !

وأسهل طريقة لسوء فهم هذه الديانة أن ننظر إلى ما يفعلونه . إنهم يقدسون الأبقار والقردة وبعض الطيور وبعض الحشرات وبعض الأشجار والأنهار . وقليل جداً من يقدس الثور .. أو يقدس النمل والنحل .

وقد استنكر كثير من الزعماء الدينيين والسياسيين هذه المقدسات المختلفة ولكن حتى هذا الاستنكار لم يكن استخفافاً بالدين أو بالناس. ولكنه خوف على الناس أن يسيئ الأجانب فهمهم. وأن يظنوا أنهم وثنيون. ولكن المعنى الذي وراء تقديس الحياة والأحياء شيء آخر. إنهم يقدسون كل كائن حي. له روح. فالروح مقدسة لأن هذه الروح أبدية مثل روح الإله. وحتى إذا مات الإنسان أو الحيوان فإن هذه الروح تنتقل من جسم إلى جسم. من جسم إنسان إلى جسم إنسان آخر أو حيوان. وفي الجسم الجديد تكفر عن خطاياها القديمة. وتظل كذلك إلى الأبد .. أي عندما تنعدم الحياة تماماً، وبعد انعدامها تعود الحياة مرة أخرى. وهذه العودة لا تتم إلا مرة كل ٤٣٢٠ مليون سنة وهذه المدة هي يوم واحد في عمر كبير الآلهة .. ولكن رب الأرباب يبلغ عمره أكثر من ١٥٠ يوماً - أي ١٥٠ مضروبة في ٤٣٢٠ مليوناً من السنين!

والحقيقة الكبرى أو الحقيقة المطلقة وراء كل شيء تظهر على أشكال مختلفة. ولكن عدداً قليلاً من الناس الصالحين هم الذين يشعرون بها .. وليس هذا الكون من أوله لآخره إلا تجسيداً لهذه الحقيقة .. وليس من السهل على أي إنسان أن يرى الحقيقة الكبرى. مستحيل. ولكن فقط أن يرى صوراً لها في الإنسان والحيوان والسماء والأرض والنار والهواء والرعد والبرق وآلهة الخصوبة. وفي السخط والرضا وفي الحياة والموت ..

ولكن الناس العاديين ماذا يرون؟

إنهم لا يرون إلا حياتهم وموت الآخرين .. يرون سنوات من الشقاء ومن السعادة والعلاقات الإنسانية والأخلاقية والقيم الجمالية ثم من

الواجب عليهم أن يتحرروا من قيود الجسم وأن ينطلقوا إلى الزهد والتقشف والخلاص من الشهوات . أو بعبارة أخرى هناك أربع مراتب يمر بها العبد الصالح ، أو من الضروري أن يفعل ذلك . فهو في أول عهده بالحياة محب للحياة . ويستمتع بها . وبعد ذلك يكون له بيت ويتهيأ لأن يكون زوجاً وأباً بأن يكون له عمل أو تجارة وأن يكافح في حياته . ثم يتزوج ويكون أباً وله أولاد . وأن يحمي الجميع بعمله وتعبه وتمسكه بالقيم الأخلاقية وبأن يحقق الخير العام لكل أهل البيت .. فإذا كان له أحفاد ، هنا فقط يجب أن يأخذ زوجته ويمسكها من يدها وأن يصعد بها بعيداً عن متاع الدنيا وأن يدير ظهره للكون وأن يسقط عن حواسه كل رغبة في شيء .. وأن يكون زاهداً راهباً ، وأن يتحرر من كل قيد حسي وأن يحقق الخلاص لنفسه من جسمه فالجسم سجن النفس ، وهو أيضاً مطبخها ومطعمها وموقدها وأغلالها الدموية . فإذا تحقق له ذلك فقد تحول إلى نفس . وتحولت النفس إلى احتضان النفس الكبرى . فإذا فعلت فقد عادت إلى مصدرها الأول .

أو بعبارة أخرى : يجب أن تخصص الطفولة لطلب العلم ، والشباب لمتعة الحياة ، والرجولة لحمل المسؤولية ، والشيخوخة للفكر ثم الاتصال بالألوهية ..

وفي كتاب مقدس آخر اسمه : « باجفاد جيتا » نقرأ انه على الإنسان : أن يضبط نفسه ، وأن يتسلط على حواسه ، وأن يتقشف وأن يكون نظيفاً وأن يصبر ويستقيم لتكون له المعرفة الحقة ، والصدق والإيمان . إن العظمة الأخلاقية هي جهاد الجسم . أي أن تعتمد على نفسك في محاربة جسمك ..

فالروح بلا بداية ولا نهاية .. والكون كله ليس إلا رموزاً إلى الحقيقة الكبرى . أو الروح المطلقة ، أو يمكن أن يقال كما جاء في كتاب الأوبانيشاد إن الروح إذا تنفست ظهر هذا الكون .. تماماً كما يظهر أثر تنفسك على مرآة وضعتها أمام وجهك أو على لوح من المعدن .. أو لوح من الزجاج . أو كما جاء في « باجفاد جيتا » : الروح هي عين العين .. وأذن الأذن .. فالروح هي التي تجعل العين ترى . ولكن العين لا تراها . وهي التي تجعل الأذن تسمع ، ولكن الأذن لا تسمعها .. إنها القوة التي وراء كل قوة في جسمك .. إنها عين العين ، وأذن الأذن وعقل العقل وجسم الجسم ونفس النفس ..

إن الكاتب الفرنسي رومان رولان يصف واحداً من أئمة الهندوكية واسمه راما كرشنا (١٨٣٦ - ١٨٨٦) فيقول : إنه التكامل الروحي لمائتي مليون هندي في ثلاثة آلاف سنة .. إنك ترى جسماً نحيلاً مشفوفاً وترى عينين لامعتين حادتين في هدوء عجيب وإنك ترى جبهة صافية كأنها مرآة تعكس ألوف المعاني والقيم والرسائل السماوية التي تحسها ولا تراها ، ثم إنه بعد ذلك إنسان يأكل ويشرب ويتوجع ويمشي على الأرض . إنه الانسجام بين كل الأفكار وكل الطقوس وكل الديانات . إنه موسيقى مكونة من ألف نغمة ولكن في سعادة غامرة ونشوة دافقة .

ويقول رومان رولان : وليس هذا الرجل وحده في الهند ، إن مثله مئات الألوف ، ولا يسعك إلا أن تتساءل كيف حدث هذا ؟ كيف كان هذا الصفاء ، كيف كان هذا الرواء .. والجواب الذي تهتدي إليه بلا عناء هو : إنها قدراتهم الخارقة في السيطرة على أجسادهم وتطويعها لأفكارهم واتحادهم في موسيقى وأناشيد السماوات التي لا يعرفها أحد سواهم ولكن نهرو العظيم قد عاب على شعبه في سنة ١٩٤٢

استغراقهم في الدين .. أو اعتقالهم لأنفسهم في قيود وتقاليد لا علاقة لها بروحانية الدين فقد قال : إن الناس قد سجنت نفسها طويلاً وكثيراً في طقوس وتعاليم أكلت صحتها ووقتها وطاقتها على العمل .. لقد انشغلوا كثيراً فيما يجب أن يأكلوه وأن يشربوه .. وعن هذا الذي يسمحون له بأن يكون قريباً يلمسونه أو لا يلمسونه .. وانشغلوا بالطبقات والطوائف أيها أشرف وأيها أقبح .. ثم لماذا ينبذون بعض عباد الله الذين ليست لهم طبقة .

وقال نهرو : أيها المواطنون اتجهوا إلى العلم بنفس حماسكم للدين . إنه وحده الذي يخلصكم من ظلام عشرات القرون .

إن نهرو كان يطلب المزيد من التحرر مع أن الهندوكية قد تحررت كثيراً جداً من قيود الماضي ورواسب الخرافات . والذي يؤمن به المتعلمون الآن يختلف عن الدين الذي يؤمن به أهل الريف .

يقول فرجيلوس فارم في كتابه : « الدين في القرن العشرين » : إن الدين الهندوكي قد تغير إلى حد كبير ولو ظهر واحد من المؤمنين القدامى ورأى ما يفعله المتعلمون أو الشبان لمات فوراً . فهم لا يشغلون أنفسهم كثيراً بالعبادات . وإنما يكتفون بالحد الأدنى من التقديس لأشياء كثيرة .. ويقول : ولا أحد يجد نفسه مضطراً إلى الصلاة قبل خروجه من البيت .. ولا يصلي قبل تناول الطعام .. ولا يحني رأسه لصورة على الحائط أو تمثال للإله شيفا ونشتو وللآلهة الأم .. لا شيء من ذلك ..

فلم يبق إلا بعض الطقوس الرمزية .. ففي الديانة الهندوكية لا يذهب الناس إلى المعابد جماعة .. فالصلاة ليست جامعة .. ومن الممكن أن يذهب الإنسان وحده لرؤية الآلهة وأشكالها المختلفة .

ويتوقف عندها قليلاً .. ويطوي نفسه على شيء من التقديس لها .
وينتهي كل شيء بعد ذلك . ولكن في المناسبات الاجتماعية يتجه
الناس إلى هذه المقدسات .. فالعروسان مثلاً يلفان حول النار سبع
مرات وقد انعقد ثوباهما معاً .. وإذا حملت العروس فلا بد من
الصلوات قبل أن يولد الطفل .. وقبل قطع الحبل السري للطفل لا بد
من الصلاة .. وتظل الصلاة في البيت عشرة أيام وبعد ذلك يعثرون
للطفل على اسم . فإذا حل موعد طهارة الطفل ، فإنهم يضعون حول
كتفه اليمنى خيطاً يظل مدى الحياة ، فإذا مات أحد أحرقت جثته
فوراً .. وألقيت عظامه في أحد الأنهار ويفضلون نهر الجانج .. ويظل
الناس يصلون للروح عشرة أيام حتى تتمكن الروح من الدخول في
جسد آخر .. لتكمل تكفيرها من خطاياها السابقة .. أما إذا لم يصل
أحد لهذه الروح فإنها تظل هائمة بين الإنسان والحيوان والأشجار بلا
مأوى معذبة ملعونة مطرودة .. وكان من عادة المرأة التي مات زوجها
أن تقتل نفسها من بعده .. أو تدخل النار حية ، فلا حياة لها بعده ..
واسم هذه العادة « الساتي » .. وقد ألغيت هذه العادة بدخول الإنجليز
الهند ، أو بتأثر الهنود بالديانة المسيحية والإسلامية ، فلم يعد مقبولاً من
واحدة أن تموت لأن زوجها مات . فلا الإخلاص يحتم ذلك :
وإنما هذا عمره وهذا عمرها . وهذا قدره هو وحده . وليس من الحكمة
أن تهلك المرأة جسمها ، ظناً أنه بهلاك الجسم تهلك الروح أيضاً .
ولكن الروح لا تهلك . ولا يميتها موت الجسم . فهي باقية بعد هذا
الجسم ، وفيما لا نهاية له من أجسام الإنسان والحيوان والنبات ..
حتى يتحقق لها الخلاص من كل الخطايا وتعود إلى الروح الكبرى
وراء كل شيء .. فلم يبق إلا هذه التقاليد التي لا ضرر منها ولا خوف

على أحد . بشرط ألا تستغرق حياة الناس وطاقاتهم وأموالهم ، وتسحبهم من الحياة العامة وتحشدهم في البيوت في عزلة عن المشاركة الاجتماعية من أجل بناء المجتمع وتطويره .. إلى آخر ما قاله الزعيم غاندي وخليفته نهرو .

- ولكن ماذا تقول الهندوكية عن هذه الحياة ؟

- الحياة عذاب . وعلى الإنسان أن يحتملها ، لكي يتخلص منها . ولا خلاص منها إلا باحتقارها والزهد فيها . وفي الزهد أكبر دليل على قدرة الإنسان . فالإنسان له قدرتان القدرة على جسمه والقدرة على نفسه عندما يجعلها تتحد « بالروح وراء كل وراء » أي بالروح المطلقة .. أي « الله » وإن كانت الهندوكية لا تستخدم كلمة الله الواحد الأحد . لأن عندهم عدداً كبيراً من الآلهة .. أو من المقدسات التي لها مقام الآلهة !

- وهل كل مظاهر الطبيعة مقدسة ؟

- كثير من مظاهر الطبيعة .. الجبال والأنهار .. والمؤمن يشعر أمامها بكثير من الخشوع ولا يمسها بسوء .. ولا يقطع أشجارها ولا أزهارها .. إلا فقط عندما يضعها أمام صور الآلهة أو تماثيلها في البيت .. ففي كل بيت ركن مقدس .. والناس الأغنياء يجعلون في كل بيت غرفة أو قاعة كبرى .

- ألا توجد أماكن مقدسة ؟

- طبعاً هناك مدن بأكملها مقدسة .. مثل بانارس وهاردوار وايوديا ودوراكا وماثورا وكانسيورام وأجين والله أباد .. وأنهار مقدسة يغتسل فيها الناس في مواقيت معروفة .. فيلقون بأنفسهم في نهر الجانج .

ومن فعل ذلك فقد غفرت له الآلهة كل خطاياه .. وأعادته طاهراً جنيناً كما ولدته أمه .

ثم هناك ابتهالات معروفة كالتي في القسم الأول من كتاب الفيدا . فمثلاً ابتهالات إلى النار التي اسمها «أجني» تقول : أيتها النار التي تتحركين في كل اتجاه ، أحميني من الناس القريبين والبعيدين الذين يريدون بنا السوء .. أيتها النار انقلي صلواتنا وتوسلاتنا إلى الآلهة . أيتها النار ارزقي الذين يقدمون القرابين لك . كما يفعل النهر مع الفلاحين حين يغمرهم بالماء .

وهناك ابتهالات إلى الريح التي اسمها «فايو» وأنقلها عن كتاب الفيدا أيضاً : أيتها الرياح من أجلك أعددنا الشراب فتفضلي هنيئاً مريئاً .. إن صوتك الجميل أيتها الرياح ينقل إلينا فضائل الحياة كلها . وينذر الأشرار ويدق الطبول للأخيار ..

وابتهالات إلى الإله «أندرا» وهو إله السحب والمطر والرعد . وهو يشبه الإله «أودين» في أساطير السويد والنرويج .. وهذه الابتهالات تقول : أنت يا أندرا أنت الذي أمسكت الأرض حتى لا تحطمها الأرواح الشريرة وأنت تستحق عظيم الثناء وعميق الامتنان .

وابتهالات إلى إله الماء المسمى «فارونا» وهو يشبه الإله الاغريقي أورانوس . وقد حدث تغيير لسلطات هذا الإله فأصبح إله مياه المحيطات فقط .. ولم يعد ذا سلطات واسعة تمسك السماء والأرض وتمسكهما بعيدتين الواحدة عن الأخرى . وتقول الابتهالات : أعطنا الثراء العريض يا إلهي ، يا زعيم العالم ، يا بطل الأبطال ، خذنا إلى أحضانك السعيدة واغفر لنا خطايانا واجعلنا من أصدقائك ومحبيك وعبادك .. يا إلهي فك قيودي من ذنوبي .. واتركني أعمل ليلاً ونهاراً

حتى أخلص نفسي من جسمي ، ثم أخلص نفسي من شروري وألتحق بالروح العالية السامية وراء كل شيء .

وهناك ابتهالات للماء وابتهالات للفجر والشمس والموت والآباء وآلهة الحياة وآلهة الخلق وللأرواح ولصانع الكون وللزمن الذي يشبه حصاناً يجري في دقة وقد وضع على ظهره إناء ممتلئ بالماء فلا تسقط منه قطرة واحدة . وفي كتاب باجفاد جيتا يجيء على لسان المطلق والموجود في كل شيء أيضاً : من كل ألف شخص واحد فقط هو الذي يستطيع أن يعرفني . إنني أنا كل شيء . أنا مصدر هذا العالم وأنا سبب تفككه . لا شيء فوقي . كل شيء ملتصق بي تماماً كما تثبت الأحجار الكريمة في خيط . أنا طعم الماء أنا نور الشمس والقمر أنا صوت البحر والهواء وكل ما يرتطم على الأرض . أنا البذرة القديمة لكل الكائنات وأنا عظمة كل ما هو عظيم وتقول : ركز تفكيرك في «ضع عقلك علي» ، حينئذ تعيش فيّ .

وفي ختام الكتاب نقرأ : «المعرفة أعظم من الممارسة ، والتأمل أعظم من المعرفة ، والزهد أعظم من التأمل ، والسلام هو أعظم من الزهد» . وهذا هو الهدف الأسمى لهذه «الديانة» ولهذه الحياة .. أن ينكر الإنسان جسمه ، وأن يتنكر لنفسه ، وأن ينجو بنفسه من جلده . فالحياة حرب مع النفس لإذلال الجسد ، والقضاء على النفس والتوقف نهائياً عن الإحساس بشيء . هنا فقط يشعر كل هندوكي أنه حقق السعادة المطلقة والخير الأسمى ، و«العدم النشوان» !

هكذا قالَ ولم يَقُل زرادشْت..

هو الطفل الوحيد الذي ولد وهو يضحك . فضحكت له كل الدنيا .. الجبال ترنحت والأشجار تمايلت . والنجوم تراقصت .. وانفجرت الحقول براكين من الألوان .. لقد ولد زرادشت .. يقال في القرن السادس قبل الميلاد ويقال في القرن العاشر . لا أحد يعرف على التحديد .

ولم تفهم أمه إلا فيما بعد ، لماذا كان يمسك بيده حجراً ويده الأخرى كان يطبقها على لا شيء .

وعندما قرر أن يتزوج اختار الفتاة التي اختارها أبوه وأمه . ولكنه قبل أن يقترب من عروسه استأذن والديه إن كان في استطاعته أن يرى وجهها فقط . وكشفت الفتاة عن وجهها . فعرفها وأحبها – «وكل شيء يبدأ بالمعرفة وبعد ذلك يجيء الحب . وعلى الإنسان أن يعمل خيراً . في نهاية العالم توزن الأرواح وتثاب على قدر العمل» – هكذا قال زرادشت عندما أصبح رجلاً ..

وبعد أيام زواجه ودعوته للناس هرب إلى أحد الجبال . وفي كهف أقام . وفي يوم احترق الجبل . وهرب ولكن النار التي كادت تأكله ، لم ينسها . وإنما جعلها بعد ذلك رمزاً للحياة ولخالق الحياة . وكان يجمع

حوله الحيوانات والطيور ويطعمها . وكان يعالج المرضى بالأعشاب ويشفي العميان بالأعشاب .

ولم يعرف الغرب اسم زرادشت إلا في إحدى محاورات الفيلسوف الإغريقي أفلاطون . مرة واحدة في «محاورة القبيادس» .

وعاش ٧٧ عاماً . والديانة الزرادشتية من أقدم الديانات في العالم . وفي رأي أقدمها جميعاً وكل نداءات وتبشيرات زرادشت قد جمعت بعد ذلك في كتاب اسمه «الأغاني» . وهذا الكتاب لم يجمع إلا بعد وفاته بألف سنة . وتأثرت الزرادشتية بكل الديانات وتغيرت وتبدلت .

وهذه الديانة أيضاً تحتفظ بأقل عدد من المؤمنين . فأتباعها لا يتجاوزون مائتي ألف . من بينها مائة وعشرون ألفاً في بومباي بالهند . وحوالي الثمانين ألفاً في إيران .. والباقي قد تناثر في العالم كله .

وبعد وفاة زرادشت نفسه عاد أتباعه إلى عبادة الطبيعة . وآلهة الطبيعة . ويقال إن أتباعه قد جمعوا خطبه ومواعظه في واحد وعشرين فصلاً أو واحد وعشرين كتاباً اسمها جميعاً «النسك» ويقال إن الملك داريوس (٥٢١ – ٤٨٥ ق . م) كانت لديه ثلاث نسخ من هذا الكتاب وكانت مكتوبة على جلد الغزال . ويقال إنه وضعها في مكان أمين . ويقال إنه احتفظ بواحدة منها في قصر في مدينة برسبوليس في إيران .

ويقال إن الإسكندر الأكبر أحرق قصور برسبوليس (٣٣٠ ق . م) . وأحرق أيضاً كتب زرادشت . ولم يغفر له أتباع زرادشت ذلك . فكانوا يلعنونه كلما وقفوا أمام النار ، يصلون لها ، أو يتذكرون الإله ، بمناسبة الوقوف أمامها . وقد وصفوا الاسكندر بأنه الشيطان . أو أنه الملعون . أو الذي يجب أن يكون ملعوناً في كل عصر ويقال أيضاً إن

الملك داريوس قد بعث بنسخة من كتاب «النسك» إلى مكتبة الإسكندرية بمصر . وبقيت النسخة فيها عدة قرون إلى أن أحرقت مكتبة الإسكندرية (٤٨ ق . م) .

وبعد ذلك بوقت طويل أعاد رجال الدين كتابة تعاليم زرادشت ولكن من الذاكرة . ولذلك دخلت هذه التعاليم حكم قديمة وتعاليم من ديانات أخرى . لا حدود ولا عدد لها

وخرج زرادشت من تأملاته الطويلة بأن هناك صراعاً دائماً بين الخير والشر ، بين الروح والمادة ، بين الحياة والموت ، بين القول والعمل ، بين السماء والأرض . وأنه لا يمكن أن نفصل بين الخير والشر ، بل هما متلازمان . ولا بين السماء والأرض . ولذلك فإنه كان يطوي إحدى يديه على مادة ، ويده الأخرى يطويها على لا شيء . واحدة على المادة وواحدة على الروح . والنار التي رآها في الجبل . لم ينسها فقد ظل سنوات عمره يحوّل أعواد الشجر إلى نار .. أي يعيدها إلى أصلها . فالنار والنور أصل لكل شيء . ولذلك يجب أن يتذكر أتباعه النار دائماً . فالنار ليست هي الله . ولكن النار هي ما يمكن أن يراه الإنسان من الله .. فالطبيعة كلها هي تجسيم لله . أو تجسيد للخير .. وقبل ظهور زرادشت كانت إيران ـ ومعناها بلاد الآريين ـ يعبدون عشرات من الآلهة . ولا يتصورون أن الله واحد . وأن قدرته مطلقة . وإنما كانوا يرون أشكالاً وأحجاماً للقدرة المطلقة . وسبب ذلك أن العقول المحدودة لا تقدر إلا على رؤية المحدود المحسوس . أما العقول الكبيرة ففي استطاعتها أن تراه كبيراً ، وأن تفهمه دون أن تحسه ..

وعرف زرادشت أن «أهورا» هو الخالق أو هو الحياة . أو هو

خالق الحياة . أو هو الخير .. وأن « مازدا » هو خالق المادة . أو هو الشر . أو هو الشيطان أو مدمر الحياة . أو هو الموت .

ولكن لا بد حيث يكون خير يكون شر أيضاً ولأن هناك إظلاماً ، تظهر النجوم ولأن هناك أرضاً منخفضة تبدو الجبال بارزة . ولأن هناك أرضاً يابسة ، تبدو البحار . فالأضداد توجد معاً . الضد يوجد بالآخر ويحاربه ويصارعه .

ولذلك فالكون كله هو (أهورا مازدا) أي التوأمان الأبديان . الوجهان لقوة واحدة . الإسمان لقدرة واحدة . بل إن كل الآلهة الموجودة في الكون في ذلك الوقت ليست إلا وجوهاً متعددة لحقيقة واحدة . إنها مثل ألوان الطيف ، إذا حركناها اختفى بعضها في بعض وأصبحت هذا الضوء الأبيض . وكذلك الآلهة المتعددة ليست إلا الواحد الأحد الذي هو الشر والخير معاً وأبداً ..

إن الشاعر الإنجليزي تنيسون قد أحسن التعبير عن ذلك في قصيدته المشهورة والتي عنوانها «في ذكراه» يقول الشاعر : «ذلك الإله الذي يحب ويعيش ، ذلك الإله هو القانون الواحد هو العنصر الواحد الذي به وحوله ومن أجله يدور الكون كله» .

ويقول زرادشت نفسه : «هذه الكلمات أقولها لكل فتاة سوف تتزوج ، وأقولها لرجلها أيضاً .. هذه الكلمات احتفظوا بها في عقولكم أنتم جميعاً وافهموها بعمق : عليكم بالصدق والحب . وبعدها سوف تحبون الخير وتعملونه . فالحياة هي العمل . والعمل هو الخير . والسعادة والسلام للنفس وللجميع هما الخير السخي ، الخير بلا مقابل .. احفظوها وافهموها . ورددوها ، هذا واجب على كل واحد منكم . وبعد ذلك لا ذنب لي . فأنتم وحدكم المذنبون .

أنا قلت . وانتهيت . وسوف أنتهي . وأنتم أيضاً على خير » .

وزرادشت يقول أيضاً : « كل إنسان يجب أن يفهم القانون لإله الحق والخير . ويجب أن يحقق الحب بين الناس . فبغير الحب لا حياة ولا خير . وتحقيق الحق بالفعل وليس بالقول . فأكثر الناس قادرون على كلام الحب ، عاجزون عن فعله . وعلى كل إنسان أن يتمسك بالإيمان الحق .. أي بالحب . وبهذا وحده يتحقق الكمال الأبدي » .

ويقول زرادشت في كتابه « الأغاني » : « احرصوا على النار التي فيكم . لا تخمدوها بالشر . لا تخمدوها بالجهل لا تخمدوها بتراب الحياة الأرضية . كل واحد منا في داخله شرارة الحياة .. وشرارة الفهم .. ووهج الحب .. وتألق النباتات الطيبة . أبقوا هذه النجوم زاهرة في أعماقكم . وعلى هديها افهموا . وعيشوا وأحبوا » . وهذه الشرارة أو هذه النار هي التي يرمزون إليها في المعابد فيصنعون سراجاً من الزيت يظل مشتعلاً في هدوء عشرات السنين . بل إن القنديل الموجود في معبد « إيران شاه » على مدى مائة ميل من بومباي في الهند ، لم ينطفئ منذ ألف سنة . وسوف يبقى كذلك ألوفاً أخرى !

وهناك دائماً محاولة مستمرة لإخماد الفهم والخير في نفس كل إنسان . وهذا الفاعل الشرير هو الإله مازدا ، أو هو التوأم الإلهي مازدا .. فهو الظلام الذي يريد أن يحتضن كل شيء فلا يبدو لأي عين ، وهو الماء الذي يريد أن يطفئ النار ، وهو التراب الذي يريد أن يغطي لمعان الروح ..

والشاعر الألماني جيته قد تنبه بعبقريته إلى هذا المعنى في مسرحية فاوست . وجعل الشيطان هو مفيستوفليس . وعلى لسانه يقول : إنه

روح الشر . إنه السالب دائماً . إنه الرفض الخالد .. إنه كلمة « لا » الأبدية !

ويقول زرادشت نفسه : « بأذنيك استمع إلى هذه الحقيقة . وبعقلك افهمها ، وبقلبك يجب أن تحبها .. إنهض أيها النائم أيها الغافل أيها الكسول وانشر كلمات الإله في كل مكان نمتَ فيه ، أو صحوت فيه ، أو أكلت أو شربت .. انهض وقل كلمة الإله .. ولا تكن أخرس في الحق .. ولا تكن متهاوناً في الخير .. هذه نصيحتي » .

ويقول زرادشت : « عندما تنسد آذاننا بمغريات الأرض ، يصبح الخير بعيداً عنا . وهنا تتحول رغباتنا إلى حقد وغضب وحرب وشر » .

ويقول : « إبعد الحقد عنك ، لا تدع شيئاً يدفعك إلى العنف » . إن هذه الحكمة القديمة لا تزال شابة . وكأنه يتوجه بها إلى العالم كله .

وكان هذا هو أسلوب حياة زرادشت كان عارفاً . أو يحب أن يعرف . وكان فاهماً ، ولا يحب أن يبدو كذلك . لأن المعرفة طويلة . وطرقها شاقة . وأخطر العارفين هو الذي يقول إنه يعرف . ولو سأل نفسه : وما الذي أعرفه ، فإنه لن يجد جواباً . وكثيراً ما التفّ المؤمنون حول زرادشت يسألونه : قل لنا يا معلمنا وما معنى أن يكون الأشرار أنجح وأكثر مالاً ، وأن يكون الخيّرون فقراء متواضعين !

وكان زرادشت يطيل النظر إلى السماء ، وإلى الجبال وإلى الأشجار ، وينظر إلى عصفورة فتحط على كتفيه .. وتنتقل إلى يديه ويخرج من جيبه بعض حبوب القمح ويطعمها . وتتركه . ثم تعود عصفورة أخرى ويطعمها .. وكان الناس من حوله قد فهموا كل شيء ، فلا يعلق على هذه الأشياء الغريبة التي تحدث له ، أمام الناس ، ثم يجيب

عن السؤال قائلاً غامضاً أيضاً : «الأشرار أغنياء أقوياء . لأن الشر سهل . والخير صعب . الهدم سهل والبناء عسير . والجهل لا يكلف الإنسان مشقة ، ولكن المعرفة تكلفه الكثير . والشرير يغري الآخرين أن يفعلوا مثله . فكل رذيلة ممتعة ، وكل فضيلة مرّة . فالرذيلة إقبال على شيء والفضيلة امتناع عن شيء . والرضا هدوء ، والسخط خاطف كالبرق . صاعق كالرعد» .

ثم يتوقف زرادشت عن الكلام . ويسكت المؤمنون به ، ويذهبون يتفكرون فيما قال . ويختلفون . ويعودون إليه في اليوم التالي ، أو الأسبوع التالي . ويلتفون حوله ويسألونه في خشوع وينتظرون في صبر يسألونه : قل لنا يا معلمنا هل نقول نعم دائماً . ألا يحق لنا أن نقول لا ؟

وكما هي عادة زرادشت ينظر إلى فوق طويلاً وإلى تحت طويلاً ثم يدير رأسه بعيداً عن تلامذته ويغمض عينيه ويقول : بل قولوها كثيراً .. قولوا : لا خلافات .. لا حروب .. لا كراهية .. لا شر !

ويعود يقول : الحياة هي السلام على الأرض وهي الخير للإنسان .. أن نعرف . أن نحب . أن نعمل خيراً ـ هذه هي حكمة الحكم في هذه الحياة !

وعندما قال له واحد من المؤمنين : أنت أستاذنا أنت معلمنا .. لم يسترح زرادشت وقال له : «المدرّس هو الوحش . هو الحيوان الأكول ! !» .

ثم سكت . ولم يفهم أتباعه . ولكن واحداً منهم تجرأ ورفع رأسه وأمسك طرف ثوب زرادشت وقال له : زدني علماً يا معلمنا .

ورد عليه زرادشت يقول : المدرسون هم الوحوش التي تلتهم الحقيقة ولا تفرز إلا الكذب . إلا النفاق . الذي أقوله لكم خذوه مني

وعني . ولا تغيروا فيه . ولا تلجأوا إلى أحد من هؤلاء المدرسين المدلسين .. إنما اسألوني أنا دائماً ما دمت حياً .. وبعدي يكون أمركم في أيديكم . والدنيا لكم أو عليكم !

وبعد زرادشت بعشرات القرون قال الشاعر الإنجليزي ميلتون وهو يصف البطل كرومويل : ما الذي تعلّمه للناس .. أنت تعلم الناس كيف تعوي ! أنت يا أستاذ الجميع !

ومن ثلاثين عاماً قال الأديب الإيطالي جوفاني بابيني الذي ألّف كتاباً عن الشيطان حرّمه الفاتيكان : إن زرادشت هو أول من ارتفع بمستوى الشر في التاريخ . فهو الذي جعل الشيطان شريكاً في الخلق . وملحاً لكل طعام . ومرضاً لكل جسم . ولهيباً يحرق كل شيء .. وهو في نفس الوقت هو الذي جعل نهاية الشيطان حتمية . لأن الخير سوف يسود في النهاية !

وزرادشت لذلك رجل أو مصلح أو نبي متفائل . فهو يرى أن العالم سوف يسوده الخير .. سوف يتغلب أهورا على مازدا .. وبعد ذلك تنتهي هموم البشرية وعذاب الإنسان . ولكن العالم عند زرادشت لا يزيد عن اثني عشر ألفاً من السنين . وله أربع دورات . كل واحدة ثلاثة آلاف سنة .. ويقال إن زرادشت يؤمن بأنه بعد هذه الدورات التي تكون قد أهلكت فيها قوى الشر ، يعود العالم إلى ميلاد جديد .. وهكذا !

وكان زرادشت أول من قال إن هناك دينين لكل الناس . دين البسطاء ودين العلماء . والذي يقال للعلماء لا يقال للناس السذّج .

وإذا حاول البسطاء أن يعرفوا ما يقال للعلماء كفروا . وأعتقد أن

الفيلسوف العربي الغزالي قد قال شيئاً قريباً من ذلك . فهو أيضاً كان يتحدث عن إيمان العوام وإيمان العلماء ..

وكان زرادشت حريصاً على أن يحقق للناس رغباتهم المتواضعة . فقد ميّز بين الناس بملابسهم . قسم الناس إلى أربع فئات : رجال الدين والجنود والفلاحين أو التجار ثم العمال والخدم .. وكان رجال الدين يلبسون الصديري المقدس والجنود يرتدون الجلباب المقدس .. والفلاحون يلبسون الطاقية المقدسة .. والعمال يضعون حزاماً على ملابسهم . وكان لا يقرّ هذه التفرقة بين الناس . ولكنه فقط أراد أن يرضي أصحاب الإيمان البسيط الساذج .

ويحاول الفيلسوف الألماني نيتشه في كتابه الرائع «هكذا قال زرادشت» أن يكون قريباً من زرادشت الإيراني ــ الذي وُلد في أذربيجان ــ فقال : «إن الذي يريد أن يكون خالقاً للخير والشر ــ يجب أن يكون أيضاً مدمراً ، وأن يحطم القيم إلى شظايا» .

«وهكذا يكون الشر الأسمى ، جزءاً من الخير الأسمى» .

«دعوني أقل لكم أيها الناس العقلاء أن تسكتوا هذه اللعنة ، بل إن الحقائق التي لا يكشف عنها أحد هي السموم القاتلة» .

«وكل ما يتحطم فوق الحقيقة ، دعوه يتحطم .. فسوف نبني بيوتاً كثيرة بعد ذلك !» .

«هكذا قال زرادشت !» .

ويقول نيتشه معبّراً عن فلسفته وبأسلوبه هو : إنني أحب الذين لا يعرفون إلا الاحتقار العميق . لأن الذي يحتقر هو الذي يحترم أيضاً . إنه يحتقر شيئاً ويحترم شيئاً آخر . إنهم السهام الولهى والتي تريد أن تبلغ الشاطئ الآخر .

« لقد آن الأوان للإنسان أن يعرف هدفه ، لقد آن الأوان للإنسان أن يضع بذور آماله العظيمة .

« إن أعظم ما في الإنسان أنه ليس جسراً لغيره ، ولكنه هدف نبلغه . وإن أعظم ما نحبه في الإنسان أنه انتقال وأنه دمار ! » .

« هكذا قال زرادشت » .

ولم يقل زرادشت ذلك . وإنما الفيلسوف الألماني نيتشه ، فيلسوف القوة ونبي النازية بعد ذلك ، هو الذي يريد أن يتجاوز الإنسان إلى عبادة الإنسان الأعلى . إلى عبادة النبل والقوة والسمو في الإنسان نفسه .. أليس الإنسان أسمى مخلوقات الله ؟ إن عبادة الإنسان للإنسان هي تقديس لأقدس ما خلق الله ..

ويقول زرادشت : « أبداً .. ليس الإنسان ولا الحيوان ولا الجبال .. ولا المال .. ولا النساء .. ولا السلطة ولا القوة .. إن شيئاً وراء ذلك كله هو الذي يستحق أن نتجه إليه .. أما طريقنا فهو « الآشا » ـ أي المعرفة ـ وهي الطريق الطويل .. وما عداه فضلال . وزيف وكذب » .

هكذا قال زرادشت منذ ثلاثين قرناً !

ظهره إلى حائط متجهاً الى الشرق

خاطب الناس . كلمهم . خذ منهم . أعطهم أكثر . أشعل النار في أعماقهم . وعلى ضوء النار تراهم ويرونك . لا تدع أحداً وحده . اقترب حتى لا تكون بينك وبينهم مسافة ـ هذه وصايا بوذا إلى تلامذته من الرهبان وحوارييه من المؤمنين في كل مكان .

وبوذا ليس نبياً ، ولا صاحب فلسفة . ولكنه «شيخ طريقة» . هذه الطريقة من اجتهاده . ولكنه ليس مخترعها . وإنما أخذها عن الأديان السابقة . وكلمات بوذا نقلت عبر مئات السنين ، ناقصة ومضافاً إليها فهو ولد في شمال الهند ٤٨٣ ق . م . وتوفي عن ثمانين عاماً .

انظر مثلاً كيف تتولد الحكمة على لسانه عندما يسأله حواريوه :

ـ لماذا نعيش يا سيدنا ؟

ـ ليس هذا سؤالاً !

ـ كيف نعيش يا معلمنا ؟

ـ هذا هو السؤال !

ولذلك فهي ديانة بلا إله . ولكنها حياة لها قواعد وأصول . ونهايتها أن يحقق الإنسان السلام التام بانعدام كل رغباته في الحياة والأحياء .

ـ ما هو أمضى سلاح ؟
ـ الكلمة .
ـ ما هو أقتل سم ؟
ـ الحقد !
ـ ما هي أقسى نار ؟
ـ الشهوة !
ـ ما هي أحلك ليلة ؟
ـ الجهل !
ـ من يحصل على أكبر مكسب ؟
ـ من يعطي أكثر !
ـ من الذي يخسر أكثر ؟
ـ من يأخذ من الناس بلا امتنان !
ـ ما هو أمنع حصن ؟
ـ الصبر !
ـ ما هو أروع سلاح ؟
ـ الحكمة !
ـ من هو أخطر لص !
ـ الشر !
ـ ما هو أعظم كنز ؟
ـ الفضيلة !
ـ ما هو أقسى ألم ؟
ـ عذاب الضمير !
ـ ما هي أعظم متعة ؟

ـ أن تعطي !

ـ ما الذي يخرب العالم ؟

ـ الجهل !

ـ ما الذي يفسد الصداقة ؟

ـ الأنانية !

ـ أقسى مرض ؟

ـ الكراهية !

ـ ما هي النار التي لا تحرق ولا يخمدها المطر ، ولا تقتلها الرياح ؟

ـ فعل الخير !

وكلما سئل بوذا سؤالاً ، أجاب عنه بقصة ، أو نادرة أو بحكاية . ولما سئل عن ضرورة التعاون بين الناس قال : الناس بالناس للناس . كل إنسان له فائدة في هذه الدنيا ، لا أحد وحده ، لا يقوى على ذلك ولا يريد ، وإذا أراد لحظة ، ندم في اللحظة التالية .. تصوروا رجلاً أعرج لا يستطيع أن يمشي ، ورجلاً أعمى يستطيع أن يمشي . فكيف يمشي الإثنان معاً . هناك حل .. أن يتسلق الأعرج كتفي الأعمى ويقول له : اتجه يميناً أو يساراً . والمعنى أن الذي يستطيع أن يتحرك لا يرى ، والذي لا يستطيع أن يتحرك يرى . والإثنان معاً ، حركة ورؤية !

حاول بوذا في إحدى المرات أن يختبر واحداً من تلامذته فسأله :

ـ ماذا تفعل إذا ضربك إنسان بالعصا ؟

ـ أشكره لأنه لم يضربني بالسيف !

ـ وإذا ضربك بالسيف ؟

ـ أشكره لأنه لم يقض على حياتي !

ـ فإذا قضى على حياتك ؟

ـ أشكره لأنه خلص روحي من عذاب الجسد !

ـ أحسنت : عندك الصبر والعقل والإعتدال .. اذهب وانصح الناس ! ويقول عن نفسه : «أنا النور لمن يريد أن يرى ، أنا السرير لمن يريد أن ينام . أنا الخادم لمن يحتاج شيئاً أنا الكل للكل ! » .

هذا الرجل اسمه بوذا ، وأصبح اسمه بعد أن كبر بوذا . ومعنى هذه الكلمة : اليقظان . أو الصاحي . أو الناهض . أو الصحوة الكبرى . أو اليقظة العظمى .

ولد في الهند ولكنه عاش قبل مولده ألوف المرات ، وفي ألوف الأجسام . دخل جسماً وخرج من جسم وخلال هذه «الحيوات» و«الميتات» تحوّر وتصوّر وتطهر . فهذا التناسخ المستمر قد جعله أصفى وأكثر تهيؤاً لحياة الطهارة المطلقة . وعاش في السماء أيضاً . وعندما أدرك أن حياته توشك على النهاية ولد من جديد في جسم أمير طفل على حدود مملكة نيبال شمال الهند .

وكانت أم الطفل ملكة اسمها «خديعة» رأت في المنام أن النور يدخل بطنها على شكل فيل أبيض . والسعادة تغمرها والكون معاً . والموسيقى تعزف في كل مكان . والورد والزهور قد غطت كل أرض . والأنهار توقفت عن الجريان وراحت تنتظر شيئاً يوشك أن يحدث ، وتغطت البحيرات بأوراق اللوتس .

واجتمع في بلاط الملكة أربعة وستون من العلماء ، يفسرون لها الحلم . قالوا : إما أن يكون المولود عظيماً ، أو أستاذاً ومصلحاً عظيماً .

وولد الطفل . وجاء العلماء وتأكدوا من وجود ثمانين علامة في جسمه تدل على أنه سوف يكون معلماً للبشرية . وفي اليوم السابع لمولده ماتت أمه من الفرحة به . وجاءت أختها وتولت تربيته .

ولما بلغ الثانية عشرة من عمره . جمع أبوه الملك كل رجال القصر وقال لهم : أفتوني في أمري ؟ إنني لا أحبه أن يكون مدرساً . فإياكم أن تذكروا أمامه شيئاً يجعله يفكر . فلا كلمة واحدة عن الموت أو الحزن أو الفقر .. حتى يظل بيننا !

وكان أبوه رجلاً ذكياً .

واتخذ الأب قراراً سريعاً أن يزوجه حتى ينشغل تماماً عن التفكير في شيء وأدخل الموسيقى والغناء والرقص والمرح في كل مكان في قصره .. وكان الأمير يلف في القصر ليسمع أجمل الألحان من أتعس الوجوه . وأعطى الأب ابنه عدداً من المجوهرات وقال له : سوف تمر عليك كل الأميرات . أعط كل واحدة جوهرة . وإذا أعجبتك واحدة فأعطها اثنتين .

وجاءت الأميرات وأعطاهن الأمير الصغير جوهرة لكل منهن . وفي آخر لحظة جاءت فتاة ونظرت إليه ونظر إليها . ودخلت قلبه فأعطاها خاتمه الثمين . وكانت زوجته . وهي إبنة أحد الوزراء . والوزير من قبيلة لها تقاليد . وعلى العريس أن يستعرض قدراته أمام العروس ، وإلا كان غير كفء لها . والعريس أمير ابن ملك وحياته ناعمة . ولم يتعلم فيها شيئاً ولكن الأمير استطاع أن يمسك السيف وأن ينازل رجالاً أشدّاء . غلبهم جميعاً وأمسك سيف الرهبان وهو أضخم سيف . ولا يحمله إلا عشرة من الرجال رفعه ووضعه كأنه ريشة في كف عملاق هائل . وأصبحت زوجته .

وعاد الأمير يتأمل كل شيء . فلم يجد حوله إلا صوراً متنوعة للألم . وأدرك أول حقيقة : أن الإنسان يمضي ولا يعود كالأنهار . وحياته كالبرق خاطفة مخطوفة قصيرة زائلة ! وطلب الأمير من والده أن يريه إحدى المدن . فذهب جنود الملك يكنسون الشوارع ويغسلون الأبواب والجدران ويبدلون ملابس الناس ويحلقون شعورهم ، ويعلمونهم الضحك والغناء ، حتى لا يرى شيئاً يحزنه أو يزعجه . وكان أول ما رآه الأمير في الطريق رجلاً نحيفاً شيخاً يده ترتجف وقد انحنى على عصاه ، فأيقن الأمير أن هذه هي نهاية كل حي ! وعندما عاد إلى القصر لم ينم لأن سؤالاً يدوي في أذنيه : ألا توجد طريقة للخلاص من الشيخوخة ؟!.

وفي اليوم التالي رأى مريضاً لا علاج له . ورأى جنازة . فأدرك عذاب الإنسان .

وألقت السماء في طريقه رجلاً زاهداً في الحياة ، ورأى السعادة والفرحة على وجهه . وآمن بأن هذه هي الغاية من حياة الإنسان على هذه الأرض . أو حياة الإنسان قبل أن تدخل روحه جسماً آخر .

وعاد إلى والده يسأله : أيها الملك إن كل شيء زائل لأنه متغير ومؤقت . دعني أمشي في طريقي راهباً أمد يدي للناس . لأنني لا أملك شيئاً فالذي يملك شيئاً ، هو الذي يملكه هذا الشيء !

وحزن الأب على ولده . ودعا حراس القصر . وشددوا الحراسة على كل الأبواب . وطلب مزيداً من الموسيقى والغناء والرقص والشراب ، حتى لا يترك الأمير مملكته وعرشه .. وكانت زوجته قد ولدت طفلاً . وقبل أن يغادر القصر ألقى نظرة على الحريم في غرف القصر : حزينات واهنات مرغمات على الحب مكرهات على

الضحك ، مدفوعات إلى النوم ، وأنفاسهن عالية ، وصدورهن يمزقها السعال ، والشحوب هو الخطوة الأولى إلى القبر ..

وقرر أن يلقي نظرة على ولده وأن يقبّل زوجته . ودخل غرفة نوم زوجته الجميلة . فوجدها قد احتضنت طفله وحتى لا يوقظها هي أو طفله تركها دون وداع ، واصطحب معه حصانه وأحد تلامذته . واستطاع أن يغرق الحرس في النوم . وأن يجعل حصانه يمشي أعلى من الأرض حتى لا يشعر أحد بوقع حوافره .

وعند أطراف المدينة ودع حصانه وصديقه . وانحنى الحصان يلعق قدميه .. وطلب إليهما أن يواسيا والده . ثم تركهما . وبضربة من سيفه نزع شعر رأسه كله ، وألقاه إلى أحد الصيادين وأعطاه ملابسه . وأخذ الملابس الممزقة . واتخذ لنفسه إلى أعلى . والتقطته السماء . وقابل اسم الراهب جواتاما ، وهو اسم أسرته الملكية . وأحياناً جعل اسمه ساكياموني ، أي راهب ساكياس . وتنقل في كل مكان . وتقشف تماماً . حتى أصبح العظم يبرز من تحت جلده ولم يعد له جسم . وإنما هيكل عظمي وتنبه إلى أن الضعف الشديد والهزال التام ، يجعلانه ضعيفاً عن الحياة وعن التفكير . وقدمت له فتاة طبقاً من الأرز . أخذه شاكراً . وهز رأسه لأنه فهم المعنى . فقد أرسلت له السماء هذه الفتاة ، وراح يتسول طعامه في هذا الطبق . واستحم في النهر . وهجره أتباعه الخمسة ، فلم يطيقوا هذا التقشف العنيف .

واتجه إلى مدينة بنارس في جنوب الهند . ووجد هناك تلامذته الخمسة ولم يكد التلامذة يرونه حتى قالوا : أخيراً عاد الأمير المدلل .. لا شأن لنا به . لن نقف له . لن نمد له يداً . هو في طريق ونحن في طريق آخر . ولا شراب له معنا ، ولا طعام . وقرأ أفكارهم . ونظر

إليهم فامتلأت قلوبهم بالحب له . وأقبلوا عليه يعتذرون . وفي «حديقة الغزال» في مدينة بنارس ألقى عليهم أول موعظة له وكانت : الوضوح والإعتدال والرحمة . هي حقيقة الصفاء والهناء في هذه الحياة فلا تنسوها !

وقال لهم : أيها الرهبان . هناك حقيقتان يجب أن نبحثهما معاً : متعة الحياة واحتقار الذات .

وقال : علينا أن نختار الطريق الوسط . ثم كيف نخلص أنفسنا من الألم الذي هو جوهر الحياة . فكل ما فيها ألم : الميلاد والشيخوخة . المرض والموت . الإفتراق عن الذين نحبهم . وأساس كل ألم : هو التعطش إلى اللذة وإلى الحياة وإلى التغيير . والتخلص من الألم هو القضاء على كل هذه الرغبات .

وقال في موعظته الأولى : إنما جئت إليكم لأملأ الجاهل بالعلم . والمعرفة والفضيلة والعدل هي طيبات يجب ألا نفسدها . حطموا رغباتكم كما تحطم الفيلة كوخاً من القش . والرهبانية ليست علاجاً إنها خديعة . فالإنسان الذي يتصور أنه يهرب من الحياة بالإبتعاد ، ليس راهباً . وإنما الراهب هو الذي يعيش بين الناس ويزهد في كل ما يراه ، ويزهد في كل ما يرغب فيه .. فالرهبانية هي ألا ترغب ما ترغب ، وألا تحب ما تحب !

وبدأ بوذا حياة الطواف التي استغرقت ٤٤ عاماً . ذهب وعاد . وطلع ونزل . ومن ورائه أتباعه .

وقد ضاق به أحد أقاربه . وقيل أخوه في الرضاعة . فأتى له بفيل مخمور وأطلقه في المدينة . وراح الفيل يخيف الناس . حتى فرغت المدينة من الناس . وهجم الفيل على طفل صغير كاد يقتله . واقترب

منه بوذا قائلاً : بل إنهم أرسلوك لقتلي فاترك هذا الطفل البريء .

وانحنى الفيل عند قدمي بوذا !

ويقال إن عدداً من الناس جاءوا إليه وطلبوا منه أن يريهم معجزاته . وفجأة شبّت النار في نصفه السفلي . وهطلت الأمطار من نصفه العلوي ، فأضاء ولم يحترق !

وتبعه أقاربه وجيرانه وآمنوا به . وخرج من المدينة إلى جبل ، فرأى هناك قرداً . وتلفت بوذا إلى أخيه في الرضاعة وسأله : هل زوجتك أجمل من هذا القرد ؟

وغضب الأخ . ولم يشأ أن يجيب فحمله بوذا إلى السماء حيث الثلاثة والثلاثون إلٰهاً . وهناك رأى قصراً فخماً ، وفي القصر رأى حوريات جميلات . قلن له : بعد موتك سوف نكون مُلكاً لك ! .

وقرر أخوه أن يموت لكي يرى ما هو أعظم .

ثم حمله بوذا إلى النار ورأى «الغلايات» الضخمة والتي سوف يوضع فيها جثمانه لكي يتطهر من رغباته وشهواته . ولكن ذكرى زوجته الجميلة كانت تلاحقه . وبعد ذلك مات وكان من المقدسين !

وفي هذه المدينة لم يجد طفل صغير شيئاً يقدمه لبوذا . فملأ يديه بالتراب وقدمهما لبوذا . وأسعدته هذه الهدية . وهذا الطفل قد ولد مرة أخرى في جسم الامبراطور أشوكا الذي نشر البوذية بعد ذلك !

ويقال ان أحد القردة قدم له هدية من عسل النحل . وفرح بها بوذا . وكانت فرحة القرد أكبر ، حتى مات من شدة الفرح . وولد هذا القرد مرة أخرى في أحد أجساد الرهبان المقدسين !

وفي الثمانين من عمره لم يعد بوذا قادراً على أن يسند ظهره إلى الشجرة المقدسة ويتجه إلى الشرق .

وقرر أن يزور كل الأماكن المقدسة وأن يودع الأصدقاء . واختار بعد ذلك طعاماً لا يمكن هضمه ، ربما كان هذا هو عشاءه الأخير . ومات في كهف على شاطئ نهر ، حيث أعد له أخوه سريره . وتغطت الأشجار بالزهور والطيور وعزفت موسيقى سماوية وانحنت كلها عليه .

وقبل أن تأخذه غيبوبة طويلة صحا صحوته الأخيرة وقال لتلامذته خلاصة حكمته : يا تلامذتي . كل مولود يموت ، يجب أن ينفصل الإنسان عن كل شيء وكل شخص يحبه . الفراق ضرورة . لا تقولوا أبداً لم يعد لنا أستاذ .. إذا ذهب الأستاذ فعقيدتي أستاذكم .. قاتلوا وكافحوا ولكن بلا غضب . بلا غضب !

بعدها مات .

وبعدها بمئات السنين انتشرت البوذية . والبوذيون في العالم حوالي ١٨٠ مليوناً . (٩٠٪ من أهل بورما ، و ٩٠٪ من أهل تايلاند .. و ٦٠٪ من أهل سيلان .. و ٦٠٪ من اليابان و ١٧٪ من الصين .. والأقلية في الهند وباكستان والفلبين . وفي نيبال دينان : الهندوكية والبوذية . وفي أمريكا ١٨٠ ألفاً وفي أمريكا الجنوبية ١٦٠ ألفاً . وفي أوروبا ١٠ آلاف) .

وأشهر الكتب التي ننقل عنها حكمة بوذا هو كتاب اسمه «فصوص الحكم» أو «قطع الماس» .. ولا أحد يعرف إن كانت كل القواعد الفكرية والنظريات الأخلاقية من عند بوذا .. فالكثير حذف والكثير أضيف .

وبوذا يطلب من الناس في كل العصور أن يقللوا رغباتهم . فإذا قلّت الرغبة نقص الألم . وما يزال مثل الطائر ينزع ريش الرغبات والشهوات والأحقاد ريشة ريشة ، حتى يصبح عارياً من كل غريزة ..

ويصبح مجرداً من طلب الأشياء والتفكير فيها . هنا فقط يصل إلى حالة النرفان .. أي الذوبان في الصمت .. فلا شيء له صوت حوله .. لا هو ينادي شيئاً ، ولا شيء يثيره أو يدعوه لأن يفعل شيئاً أو يريد شيئاً . هذه الحالة هي الكمال المطلق ، لأنها الانعدام المطلق .. وهي أسمى درجات الوجود ، حيث لا يشعر الإنسان بوجود شيء أو بوجوده هو ..

ويصفها بوذا نفسه يقول : «حيث يكون مرض ، ولا أحد مريض ، حيث تكون حركة ، ولا أحد يتحرك ، حيث يكون طريق ، ولا أحد يمشي فيه .. حيث تكون في الصمت التام ، لأنك أخرست كل صوت ، حيث تكون في الظلام التام ، لأنك أطفأت كل نار . أنت تستطيع أن تموت دون أن تدري .. إنها قمة القمم ، لأنك تواضعت واعتدلت ورحمت نفسك وغيرك ! » ويعود إلى حوار مع أحد تلامذته :

ـ يا سيد ماذا تريد من الحياة ؟

ـ لا أريد الحياة .

ـ وماذا تريد من الموت ؟

ـ ولا أريد الموت .

ـ إذن ماذا تريد ؟

ـ لا أريد أن أريد شيئاً !

ـ لماذا ؟

ـ لأن هذه هي السعادة .

ـ وما فائدة السعادة ؟

ـ إنها ثمرة لأشجار المعرفة والاعتدال والرحمة . ولأن السعادة من

صنعنا والألم غريزتنا . وأقدر الناس على أن يسعد نفسه أقدرهم على إسعاد الناس ..

ـ حكمة أخرى يا أستاذ ؟

ـ ليس لك إلا هذا القدر ، فعانق قدرك وعش راضياً ومت وأنت أكثر رضا !

الانتصار على الحياة : دين !

الإنسان قادر على كل شيء . على كل معرفة . على كل هداية . على الجوع والشبع ، والصحة والمرض .. ولكن القادرين عددهم قليل .. وهذا القليل قادر على أن يقوم بدور الآلهة لخير الانسان ، ولذلك لا داعي لوجود إله . أو آلهة !

هذه هي خلاصة الديانة «الجينية» وهذه الديانة هي أحد فروع الديانة البوذية . والجينية معناها الإنتصار . والجينا هو المنتصر هو الفاتح .. أما النصر فهو على رغبات الجسم الإنساني وعلى الخوف من الموت . وهذه الديانة تقوم على الرهبانية . فكل المؤمنين بها في العالم وعددهم مليونان أكثرهم في الموانئ الهندية ، يعيشون على البساطة أو الكفاف . وإذا أراد واحد منهم أن يموت فإنه يضرب عن الطعام أو عن الشراب . أما أن يقتل الإنسان نفسه فحرام . وحرام أيضاً أن يقتل غيره من الناس والحيوانات والحشرات والنباتات .

لا يصح له أن يقتل حيواناً أو يأكل لحمه أو يشرب لبنه . وحرام عليه أن يقتل حشرة : نملة أو ذبابة . وحرام عليه أن يقطف زهرة أو وردة أو ورقة من شجرة لأن النباتات أيضاً لها حياة ، أو درجة من درجات الحياة فإذا أراد «الجيني» ـ أو أتباع الديانة الجينية ـ أن

يتبول أو يتبرز فيجب أن يذهب إلى أرض خراب . ويشترط أن تكون هذه الأرض خالية من الحياة . أي من حياة الحشرات . بل إن بعض الجينيين يضعون المناديل على أنوفهم حتى لا يؤدي تنفسهم إلى قتل الحشرات التي لا يرونها . وبعضهم إذا وجد النمل قدم له طعاماً وإن كانت هذه الديانة لا تنصح بذلك لأن الإنسان يجب ألا يملك أكثر مما يحتاج . فإذا أعطى النمل فليكن ذلك من طعامه القليل . بل الأفضل ألا يملك الإنسان شيئاً . ولهذا يمشي عارياً . وإذا أكل فليطلب ذلك من غيره من الناس . أي يجب أن يتسول . فإذا تسول وأعطاه الناس من الديانات الأخرى ، فلا يشكرهم على ذلك إذا أعطوه ، ولا يلعنهم إذا رفضوا أن يعطوه .

ولكن مرة واحدة كل ثلاثين عاماً ، يستخدم المؤمنون اللبن في غسل أحد التماثيل المقدسة . وإن كانوا أيضاً لا يقدسون أحداً ولا يعبدون صنماً . ولذلك جاءت معابدهم فخمة أنيقة البوابات والأعمدة . وفيها تمثال واحد للرجل رقم ٢٤ في تسلسل «الأرواح السامية» أو «الأرواح الكاملة» هذا الرجل اسمه ماهفيرا (أي الرجل العظيم) . وقد عاش هذا الرجل على أيام بوذا . فقد ولد سنة ٥٩٩ ق . م .

وكانت ولادته ـ هو أيضاً ـ غريبة فقد كان في السماء . وعاش على هذه الأرض يهدي الناس عدد من الأرواح الكاملة بلغ عددهم ثلاثة وعشرين . وهو الروح الرابع والعشرون . وعندما كان هذا الروح الكامل في السماء حزن على عذاب الإنسان وعلى حيرته ودوخته بين المذاهب والأديان .. وبين المعابد الوثنية وبين أديرة الرهبان . وقال لنفسه : إذن لا بد أن أهبط ..

ويبدو أن سكان السماء قد فرحوا لذلك . وما كان من ماهفيرا

هذا إلا أن تسلل إلى بطن أحد الأميرات ودخل في الجنين الذي تحمله . وهو في الجنين أقسم على نفسه أن يحقق الكمال . ثم انتقل من هذا الجنين إلى جنين آخر وأحست الأم والمولود لا يزال في بطنها أن شيئاً عظيماً سوف يقع قريباً ورأت في نومها إشارات عجيبة : رأت فيلاً وأسداً وشجرة ووردا وبحيرة وأسداً وثوراً وقمراً وشمساً وجبلاً من الماس . وروت أحلامها على العلماء ، فقالوا لها إن ولدك سوف يكون من أكبر العلماء .

وولد الطفل وعمت الدنيا بهجة رائعة . السماء أصبحت كالبحيرة تغطت بأزهار اللوتس . والأرض اهتزت بالموسيقى والغناء .

وعاش هذا الطفل ثلاثين عاماً . تزوج وأنجبت له زوجته فتاة . وعاش بعد ذلك ١٢ عاماً في رهبانية مطلقة . وزهد وتأديب للجسم . وفي نهاية العام الثاني عشر ذهب ماهفير إلى إحدى الأشجار المقدسة في أعلى أحد الجبال .. وظل يسند ظهره للشجرة يومين ونصفاً . يتأمل ويفكر ممتنعاً عن الطعام والشراب عارياً لا يتحرك ولا يسمع شيئاً مما حوله . وفي النهاية أحس بخفة في جسمه . ونشوة في قلبه . وصفاء في عقله . والتفت حوله الكائنات الكاملة أو الأرواح الكاملة وراحوا يقولون : النصر .. الانتصار .. الغزو .. إنهض فإن روحك قد كملت لقد حققت النرفانا ــ أي الكمال بالزهد التام عن رغبات الجسد وعن كل شهوات الحياة ومخاوفها .. إنهض !

ونهض راهباً متجولاً صارخاً في الصحراء والوديان يدعو الناس إلى الطهارة والزهد في كل شيء .. واستغرقت جولاته أربعين عاماً ..

ــ وواضح أن هناك تشابهاً بين حياته وحياة السيد بوذا . وكلاهما رجل مقدس !

أما من هو الرجل المقدس الطاهر ؟

١ ـ هو الذي لا يأكل .

٢ ـ وهو الذي لا يملك ملابسه ولذلك يجب أن يصلي عارياً .

٣ ـ أما المرأة فهي عاجزة عن الخلاص من بدنها وشهواتها . ولذلك لا رهبانية للنساء ، وإنما للرجال فقط فاحمد السماء أن جعلتك رجلاً ـ كذلك كان يقول الفيلسوف الإغريقي أفلاطون وكذلك اليهود في صلواتهم اليومية .

والديانة الجينية هي أيضاً ليست لها كتب مكتوبة . وإنما المؤمنون نقلوا تعاليمها شفوياً عبر مئات السنين . ولا أحد يعرف بالضبط كيف كانت أول الأمر .. ولا ما الذي قاله رجالها وقد جمعت هذه التعليمات بعد ألف سنة من اختفاء ماهفيرا ثم أحرقت بعد ذلك . وأعيد جمعها في منتصف القرن السابع عشر الميلادي .

ولكن من الثابت أن «الروح الكاملة» أو «الروح السامي» يجب أن تتوفر له عدة صفات أو قدرات لم يختلف عليها المؤمنون في كل العصور .

١ – القدرة على منع المجاعة في منطقة قطرها ٨٠٠ ميل . فالروح قادر على ذلك .

٢ ـ الروح الكامل هو الذي يستطيع إذا مشى أن يكون أعلى من الأرض . وإذا جلس أن يكون أعلى من الأرض .

٣ ـ يستطيع أن يتحدث إلى الإنسان من أي اتجاه ـ بوجهه وظهره وبجانبه . فلا يعرف أحد إذا تحدث إليه من أين تصدر أضواته وإشاراته وكيف يفهم وكيف يقنع الناس .

٤ ـ عنده مناعة ضد الألم والمرض .

٥ ـ عنده القدرة على تدمير كل قوة مدمرة في أي إنسان .

٦ ـ يستطيع أن يعيش بغير طعام .

٧ ـ قادر على أن يفعل أي شيء مهما كان صعباً ـ بوذا كان كذلك أيضاً .

٨ ـ لا ينمو له شعر ولا أظافر .

٩ ـ عيناه مفتوحتان دائماً ، كأنهما بلا أجفان .

١٠ ـ ليس لجسمه ظل .

وهذا الروح الكامل «عنده المعرفة الكاملة بكل شيء . والقوة المطلقة لعمل أي شيء والرحمة المطلقة . والفهم المطلق» .

وشعار الروح الكامل «لا تؤذ أحداً . لا حيواناً ولا إنساناً ولا نباتاً» ولهذه الصفات «الإلهية» التي أعطوها للروح المطلقة ، لم يكونوا في حاجة إلى إله . لأن بعض الناس عندهم هذه القدرات التي لا يتصف بها إلا إله ـ أو إلا الله !

ولكن هذه الديانة «الجينية» ليست على يقين من أشياء كثيرة في هذه الحياة . شيء ما في هذه الدنيا يختلف من شخص إلى شخص . ومن سن إلى سن . وبين الجاهل والمتعلم . والفلاح والتاجر . والمريض والصحيح لذلك لا أحد على يقين من أي شيء . وإنما الأرواح المطلقة هي التي حققت اليقين في كل شيء . هي وحدها . ويضربون لذلك مثلاً : فيلاً التفّ حوله ستة من العميان . كل واحد لمس منه جزءاً . فالذي لمس أذن الفيل قال إنها مروحة يحملها شخص ما . والذي أمسك رجله . قال إن هذا عمود لأحد البيوت أو المعابد . والذي أمسك بذيل الفيل قال إن هذا جزء من حبل .. وكل واحد منهم على حق . لماذا ؟ لأنه أمسك جزءاً من الحقيقة . ولم يلمس الحقيقة كلها .

فقط الروح الكاملة هي التي رأت الفيل كله . وهي التي عرفت أن كل واحد من العميان الستة لا يعرف هذه الحقيقة . وإنما يعرف جزءاً منها .. وكل الناس لا يعرفون من الحقيقة إلا أجزاءها . أما الروح الكامل فهو وحده الذي قد أدرك الحقيقة كلها ، كأنه إله .. أو هو إله .

وإذا كان بعض الناس قد تمسك بالحياة ، فلأنه لا يعرف الحياة . ولا يعرف حقيقة الإنسان ولا نهاية الحياة ولا طول الرحلة التي سوف يقطعها حتى القبر . إنه لا يعرف . ولو عرف لترك الحياة . إن ماهفيرا نفسه قد كان غنياً . وقد نزل عن ثروته للفقراء كما فعل بوذا وكما فعل أديب روسيا تولستوي .

وكان ماهفيرا هذا قد عرف أن ديانته هذه سوف تدخلها الخرافات فيما بعد . ولذلك فقد طلب من المؤمنين ألا يعبدوه ، لا هو ولا غيره . وإنما فقط أن يتذكروه وإذا كان تذكره صعباً فلا مانع من أن يصنعوا له تمثالاً . فإذا أرادوا الصلاة ، فليجعلوا التمثال وراءهم . لأنه ليس إلهاً . وإنما هو رجل حكيم فقط .. وقد حدث بعد ذلك أن امتلأت المعابد بتماثيله . وفي كل يوم ٨ أغسطس يذهب الحجاج إلى مدنهم المقدسة . ويقفون يبكون أمام تمثاله . ويتمسحون فيه . ويقول بعض رجال الديانة الجينية إن شيئاً غريباً قد حدث لهذا التمثال ، لقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة من الناس . لقد كان ماهفيرا يرى أن الرجل المقدس هو الذي يتنزه عن الضحك والبكاء . والتعبير عن شيء . لأن الذي يعبر عن شيء هو الذي أحس به واهتز له أو ضده . والمقدس لا يهزه شيء . ولذلك يجب ألا يبدو على التمثال أية علامات تدل على حالة غير : الرضا والصفاء ..

ويقول ماهفيرا يصور معنى الدنيا كلها ، من وجهات نظر كل الناس ..

١ ـ ربما كان البحر موجوداً .
٢ ـ ربما كان غير موجود .
٣ ـ ربما لا يمكن التعبير عنه .
٤ ـ ربما يكون موجوداً ولا يمكن التعبير عنه .
٥ ـ ربما لا يكون موجوداً ، ولا يمكن التعبير عنه .
٦ ـ ربما يكون موجوداً أو غير موجود ويمكن أو لا يمكن التعبير عنه .

فكل المعلومات أو المفهومات أو القيم الإنسانية نسبية . ولا أحد على يقين من شيء . ولذلك احتاج الناس إلى اليقين . واليقين هو الروح الكامل . وهو الهادي والهداية . وهو الناصر والنصر . وهو الغازي والغزو . وهو الروح الذي انتصر على جسمه . وهو الجسم الذي أطاع الروح .. وعلى الناس أن يفعلوا كذلك أن يمشوا وراءه بغير قيد أو شرط .. فالقيود عقبة والشروط معناها أن يرفع الإنسان إضبعه يعترض على الروح الكامل . وهذا هو الكفر . أو هذا هو الجهل . وكلاهما يقفان في طريق أي إنسان أن يكون روحاً كاملاً . ولا أحد يعرف بالضبط متى يكون ذلك . ولكن هذا محتمل الوقوع في أي وقت .. وفي أية مرحلة من مراحل العمر . إن ماهفيرا نفسه ، قد نسي في وقت من الأوقات أين كان ولماذا هو كائن . ولكن فجأة قيل له : أنت الناصر والنصر . أنت القدرة والقادر . أنت الرجل الرابع والعشرون . فانهض فالناس أغنامك وأنت راعيها ..

وما من صاحب رسالة أو دعوة أو فلسفة أو دين أو حزب إلا وجد له عدداً من الكافرين به المحطمين لروحه المعنوية . وهي فرصة للرجل

العظيم أن يثبت للناس أنه عظيم فقد اعترض طريق ماهفيرا عدد من الكفرة وقد ارتدوا ثياباً فخمة . وأمسكوا بقرة مذبوحة . وحملوا سيوفاً دامية . وجلست معهم النساء تأكل وتشرب وترقص . قالوا له : ألا ترى أن الذي نفعله أحسن وأمتع من الذي تطلبه من كل الناس .. انظر إلى ملابسنا وإلى بشرتك .. وإلى عظامك التي تكاد تمزق جلدك .. وإلى ما تأكله ، وما نأكله .. أنظر إلى النساء الجميلات معنا ، وإلى الرجال المحطمين الجائعين المنهارين الذين معك !

وقال ماهفيرا : بل من أجل هذا كرهت مثل هذه الحياة . لقد كنت أميراً غنياً . ودست على كل شيء . وكل حكم وكل لون . وكل لذة .

فقام أحد الكفرة وصفعه على وجهه وقال له ماهفيرا : هل أحست يدك بشيء ؟

فقال الرجل : لا .

ـ لماذا ؟

ـ لا أعرف ..

ـ لأنني روح بلا جسم . حاول مرة أخرى .

وقام الرجل وحاول أن يقطع عنقه بالسيف . تحرك السيف من جانب إلى جانب .. ولكن رأس ماهفيرا لم يسقط .

فقال له ماهفيرا : كيف تعبّر عن هذا الذي حدث ؟

ـ لا أعرف .

ـ أنا أقول لك .. أنا أقوى منك بجوعي وعطشي وعريي .. فكلما أكل الإنسان أصبح أضعف . وكلما شرب أصبح أوهن . وكلما لبس كان أكثر تأثراً بالحر والبرد ..

وطلب كافر آخر من إحدى الفتيات أن تتعرى تماماً . وتعرت تماماً . وكانت جميلة رشيقة . وقال له : ألا يحرك فيك هذا أي شيء !

فقال ماهفيرا : ولا في أحد من رجالك ، اسألهم ما الذي يرونه الآن .

فقال واحد منهم : هذا فيل .

وقال آخر : هذا ثور .

وقال ثالث : هذه أمي .

وقال رابع : بل هذا أنت .

وكان يشير إلى الكافر الذي أمر الفتاة أن تتعرى .

واندهش الكافر وقال : بل هذه أجمل الفتيات في الهند .. هل جننتم .. هل ضحك عليكم ؟

وصرخ فيه الناس : أنظر .. أنظر .

ونظروا جميعاً فوجدوا ماهفيرا يمشي فوق الأرض .. وكانت قدماه فوق رؤوس الجميع ..

وخرّوا ساجدين .. موتى !

كونفوشيوس مُتَديّن ليسَ لهُ دِين !

من نصائح هذا الرجل : دع الأمير أميراً ، والابن ابناً ، والأب أباً . فكل واحد له طبيعة وله حدود .

ويقول : إرادة الله هي طبيعة الإنسان ، والذي نسلكه إلى هذه الطبيعة اسمه الطريق . والذي يجعلنا قادرين على السير في هذا الطريق هو التعليم والتربية . ولذلك يجب ألا نبعد عن الطريق لحظة واحدة !

«أينما ذهبت ، فخذ قلبك معك ! » .

«أكبر غلطة أن تكون هناك غلطة ولا تصلحها ! »

ويقول : «لا تتصور نفسك كبيراً جداً ، حتى لا يصبح الناس ضغاراً جداً ! »

وهذه النصيحة البليغة : «ألا تعرف شيئاً وتعترف بذلك ، هذه معرفة جديدة ! »

وهذا الناصح من ألوف السنين هو الفيلسوف الصيني كونفوشيوس . الذي ولد سنة ٥٥١ ق . م . ومات بعد ذلك بثلاث وسبعين سنة . وعلى الرغم من أن هذا الرجل ليس صاحب ديانة فقد كانت تعاليمه ديانة عاشت به . وربما كان هذا الرجل أسبق من عصره بألفي سنة . فهو رجل متدين . ولكن ليس له دين . فهو يفعل بالضبط ما يفعله

كل الناس المتدينين : فهو رجل على خلق كبير ، حياته معتدلة . وهو لا يطلب من أحد ألا يكون مهذباً في حياته . وأن يكون طيباً مع الآخرين ليس له إله . وهو نفسه لم يدع الألوهية ، وإن كان تلامذته قد نصبوه إلهاً بعد وفاته .

وكونفوشيوس من أسرة غنية . ولكنه لم يكن غنياً. وعندما حملت فيه أمه كانت تنظر إلى أحد الجبال أو التلال . ولذلك لقب بالتل . ويقال إنه سمي التل ، لأن في رأسه بروزاً غير عادي . ثم انه كان مفرط الطول . وقد درس الديانات السابقة عليه . واستنكر الكثير منها . وفي نفس الوقت اختار ما يقدر على فهمه . وقد اختار موضوعاً واحداً هو : الإنسان . كيف يعيش ، كيف يعلم نفسه ، كيف يكون نموذجاً لغيره ، كيف أن الأسرة واحدة يجب أن تكون مثلاً أعلى للمجتمع الصيني كله ، وربما كانت هذه أصعب النظريات التي طالب بتطبيقها . فالأسرة الصينية متماسكة الأفراد ومنطوية على نفسها . وهو عندما طالب الأسرة أن تنفتح بعضها على بعض .. وتتهيأ دائماً لانتقال العدوى الأخلاقية إليها ، كان يطلب المستحيل ، أو شيئاً قريباً منه . ولذلك سافر من مكان إلى مكان يطالب بأن يعطيه أحد الأمراء الحرية الكاملة في أن يبني مدينة مثالية . يختار أهلها . ويختار سكنها . ويضع نظمها في الحياة والأكل والشرب والنوم والسير في الشارع ، ويعلمهم كيف يشكرون بعضهم البعض . وكيف يفرحون وكيف يحزنون . وكيف لا يشغلون أنفسهم بالأرواح بعد الموت ، ولا بما بعد الموت . فلا أرواح طيبة أو شريرة .. ولا داعي لأن يبكي الناس طويلاً على موتاهم . ولا داعي لأن يقدموا القرابين إلى أجدادهم .. ولا أن يحزنوا على الميت ثلاث سنوات !

وهذا الرجل كونفوشيوس كان مثل الفيلسوف الإغريقي أفلاطون . هو أيضاً أراد أن يؤمن به ولو أمير واحد . فإذا آمن به أقنعه بأن يعطيه مدينة ليجعلها فاضلة أو مثالية . وأفلاطون وجد من يعطيه جزيرة ليطلق عليها « مدينته الفاضلة » أو « جمهوريته المثالية » .. ولم ينجح صاحب الفلسفة في أن يكون صاحب سياسة عملياً . وبذلك تعيش مشكلة الأجيال كما هي : كل فيلسوف يريد أن يكون ملكاً ، وكل ملك يريد أن يكون فيلسوفاً .

وظل كونفوشيوس فيلسوفاً يبحث عن الذي يجعله ملكاً أو أميراً . وكونفوشيوس مثل الفيلسوف العظيم سقراط ، لم يكتب سطراً واحداً في حياته . ولكن الأجيال تناقلت أحاديثه ونصائحه ومحاوراته مع تلامذته في أربعة كتب : التقاويم ، والسجلات ، والأغاني ، والمحاورات . وقد قدر لهذه الكتب جميعاً أن تحرق . ولكن الكونفوشية لم تنتشر بعد ذلك إلا بعد أن آمن بها أحد الأباطرة ، تماماً كما حدث للديانة المسيحية !

وأول ما قاله كونفوشيوس : إن السماء لا تتكلم !

وكانت الديانات قبله تجعل السماء نسخة من الأرض . فيها ملوك وأباطرة وفيها وزراء ومديرون . وكل ملك ـ أو إله ـ يسكن في قصر مستقلاً عن الآخرين . وكل الموظفين يرفعون تقارير يومية إلى رؤسائهم . والرؤساء يرفعونها إلى الوزراء ، والوزراء إلى الملوك ، والملوك إلى الامبراطور . أو ملك السماء . أو الملك السماء . وملك السماء هذا قد خلق الإنسان من طين ولكن الطين وهو في طريقه إلى الأرض تعصف به الرياح أو تذيبه الأمطار ؛ فيخرج من ذلك كل الناس الضعفاء والمرضى . والسماء نفسها تسع طبقات ويقال تسع وثلاثون

طبقة . ولكن ليس على الإنسان أن يفكر في ذلك يجب أن ينشغل بعالمه بدنياه بالإنسان نفسه . فهو الحقيقة المؤكدة التي يلمسها . أما السماء والقدر والموت والأرواح والآلهة ، فهي أكبر من عقل الإنسان . ولذلك يجب ألا يتعب نفسه في فهمها ، وغيره كذلك .. الإنسان هو أهم ما يجب أن يهتم به الإنسان نفسه !

وبهذه المعاني يكون كونفوشيوس قد سبق عصره بألوف السنين . ففي العصور الحديثة اتجه بعض الفلاسفة إلى : الطبيعة .. وإلى الإنسان .. وأنكروا أن يكون هناك شيء وراء الطبيعة ، وشيء بعد الإنسان أو قبله أو وراءه ..

وعندما ولد كونفوشيوس مات أبوه ولم تشأ أمه أن تخبره بالمكان الذي دفن فيه . ولما ماتت أمه ، هداه بعض الناس إلى المكان الذي دفن فيه أبوه فدفن والديه في مكان واحد . ولم يشأ أن يحزن على أمه ثلاث سنوات كما تقضي التقاليد الصينية القديمة ، ولما سأله أحد أقاربه قال : أنت تحب هذا الحمل الذي سوف تذبحه ، أما أنا فأفضل طريقة الذبح وطريقة وضعه على الأرض . ليس الشيء ، ولكن أسلوب تناوله هو الذي يشغلني !

.. وفي أواخر أيام حياته رأى كونفوشيوس بعينيه أن الناس يمشون بنظام في الشارع ، على الجانبين ولا يمشون وسط الشارع . ورأى الناس يدخلون بيوتهم بنظام . ويجلسون إلى الطعام بنظام . ورأى طفلاً صغيراً يقدم عصا إلى والده لكي يضربه . فقال كونفوشيوس لتلامذته : الآن يمكنني أن أموت !

قيل له : يا معلم ما الذي تشبهه الآن !

قال : أشبه كلباً حزيناً في بيت به ميت !

فقيل له : ولماذا ؟

قال : لأنني لم أحقق شيئاً مما حلمت به . إن أحداً لا يدري بي على الأرض . وسوف أموت دون أن يعرفني أحد . دون أن يذكرني . دون أن يشعر بالإمتنان لي أي أحد .

فقيل له : السماء تعرف .

قال : هذا صحيح السماء هي التي تعرف ترى في صمت . ولكن الذي يهمني هو الناس . إن السماء قد أرسلت قبلي وسوف ترسل بعدي ألوفاً من الناس .

قيل له : ألا يكفيك أنك شعرت بالسعادة لأنك قلت ما عندك . ولأن لك حواريين من الفقراء والأغنياء ؟

قال : الأغنياء أهم . لأنهم يملكون السلطة .. والقدرة على تغيير الناس ولكن الفقراء لا يملكون إلا كثرتهم . وإذا حاولوا أن يغيروا الأمراء قتلوهم ولا أريد القتل . أريد أن أعلم الكبار لأغير بهم الصغار . ولكن أين هم الكبار إنني لا أرى إلا صغاراً من الأمراء ، وصغاراً جداً من الفقراء .

وعندما جلس كونفوشيوس تحت إحدى الأشجار برز له رجل غريب قال له : إن كنت معلماً حقاً فما الذي تقوله لي وأنت لا تعرفني ؟

فقال : هناك ما أقوله لك لأنني أعرفك .. وهناك ما أقوله لك لأني لا أعرفك .. فأنت إنسان لا شك في ذلك . وأنصحك يا إنسان بألا تعصي والديك .. وأنت يا هذا الشخص الذي لا أعرفه أنصحك بأن تكون إنساناً . وأنت إذا أخلصت لنفسك وطبيعتك فلا خوف عليك . ثم إنك لست آلة وإنما أنت إنسان حي .. ولذلك تخاف

وتتمرد وتقاوم ويدخلك الغرور وتحتاج إلى صبر مع الناس ، والناس في حاجة إلى صبر عليك !

وقال كونفوشيوس : إن الحكمة تحررك من الشك ، والأخلاق تحررك من الألم ، والصمود يحررك من الخوف !

وعندما توفي أحد تلامذته بكى عليه وخرج بعد لحظات من بيته . فقال له تلامذته : كأنك هربت منه . فأجاب كونفوشيوس : لم أهرب منه ، لأنه لم يعد هناك . فلا حياة بعد ذلك !

وسأله أحد رجال الديانة البوذية : يا معلم كونفوشيوس ما دينك ؟

قال : لا دين لي ..

قال : ما كتابك ؟

ـ لا كتاب .

ـ ما صلواتك ؟

ـ لا صلوات ..

ـ ما الذي تدعو إليه إذن !

ـ أن يكون الإنسان إنساناً ، لا حيواناً ولا إلٰهاً !

ـ وأنت إنسان ؟

ـ نعم إنسان يذكّر الإنسان بأنه إنسان !

ـ ألا يعني ذلك أنك إله ؟

ـ بل إنسان فقط .

وعلى الحدود بين بعض إمارات الصين وقف كونفوشيوس عند نهر صغير . ورأى ظله في الماء وقال : هل تعرفون ماذا أرى ؟

قالوا : صورتك في الماء ..

قال : لا .. بل كلانا صورة زائلة .. أنا على الماء كما أنا على الأرض: زائل .. زائل !

وكان من عادة كونفوشيوس أن يجلس إلى زملائه ويطلب إليهم : أن يقلبوا النار حتى لا تخمد !

وكان يعني بهذا التعبير أن يسألوه لعله يفكر لهم أو معهم .. وكان يقول لهم : تعالوا أدركوا النار قبل أن تنطفئ .. أدركوا طبيعتي قبل أن تتغطى بطبائعكم ..

سأله أحد تلامذته : يا معلمنا من هم الثلاثة الذين لا تحب أن تراهم ؟

قال : أنتم الثلاثة . لا أحب أن أراكم .. وأنتم الثلاثة أحب أن أراكم .

فقالوا له : كيف ؟

قال : لا أحب أن أراكم مشغولين عن الإنسان بأي شيء آخر . وأحب أن أراكم انشغلتم عن إنسانيتكم بإنسانية الآخرين ..

ثم قال : ثلاثة لا أحب أن أراهم ، من يتوجه إلى السماء دون احترام ، ومن يمشي في جنازة دون حزن ، ومن يشغل منصباً كبيراً ويكون عبداً لمنصبه .. لا أحب أن أراهم ولا أن ألقاهم .. ولا أن يكون واحد منكم منهم اليوم أو غداً !

وظل كونفوشيوس ينتقل من أمير إلى أمير ، ومن مملكة إلى مملكة يطلب شيئاً واحداً : أن يستمع إليه الناس .. الأمراء أولاً .. والشعب ثانياً ، أو لا يهم أن يسمعه الشعب فالأمراء قادرون على تغيير مسار الناس ، وهو قادر على إقناع الجميع .

وأشهر المحاورات التي سجلتها لنا كتب كونفوشيوس هي التي

كانت بينه وبين أحد الأمراء . قال له : يا معلم لماذا لا تستريح بعد هذا الدوران حول كل القصور ؟

ـ لا تهمني القصور . ولكن سكانها .

ـ إن سكان القصور من الأمراء والأميرات والعشاق والعشيقات .. والذهب والرقص والموسيقى ..

ـ بل تعنيني الموسيقى فقط .

ـ لماذا يا معلم ؟

ـ لأن الموسيقى قادرة على تهذيب المشاعر .. وهي قادرة على أن تحقق الإنسجام بين الجسم وطبيعته .. فالموسيقى هي أسلوبي في تحقيق السلام في الإنسان وبين الناس .

ـ ولكن الموسيقى تدعو إلى الرقص وإلى الشرب وإلى الاستغراق في الملذات وأنت تعرفها ..

ـ لهذا بالضبط تهمني الموسيقى .. لأنها قوية وقادرة على تحويل الإنسان إلى حيوان والحيوان إلى إنسان .. لهذا يهمني أن أمسك بها وأوقف الناس عند إنسانيتهم فقط .. إن الريح تلعب على أوراق الشجر كما تلعب الأيدي على أوتار القيثارة .. وان الماء يلعب بالحصباء في النهر كما يلعب المحب الولهان بشعر حبيبته .. وكما تلعب النجوم بأمواج النهر .. لهذا أحب الموسيقى وأريد أن يسكت الناس بعض الوقت ويتكلموا موسيقياً !

ـ ولكن يا معلم أنت تطلب المستحيل .

ـ نعم أنا أطلب المستحيل لأجعله ممكناً . وهو ممكن .

ـ لم أر أحداً كذلك .

ـ بل أمامك هذا الأحد ..

ـ أنت فقط .

ـ ومن بعدي سيكون الألوف .. ولو تحولت أنت إلى واحد مثلي ، لتبعك الألوف دون تفكير ..

ـ وأنت تريد أن تمشي بلا تفكير .

ـ نعم أول الأمر .. وبعد ذلك أجعلهم يمشون عن إيمان بطبيعتهم الإنسانية .

ـ وما الفائدة ؟

ـ ألا يكون حول قصرك حراس .. وألا يكون على حدودك حراس .. وألا يكون في بلاطك منافقون وتجار ذمم . وألا تكون أنت متربصاً بأخيك المريض .

ـ ولكنه سوف يموت .. وأنا أخشى على عرش أخي .

ـ لن يموت الآن فلا تشغل نفسك بهذا العرش ..

ـ من قال لك ؟

ـ أنا أعرف . وقد رأيته اليوم . وهو في صحة أحسن من صحتك . وقلبه يضرب الدم ، كما يضرب الينبوع ماءه عالياً .

ـ أنت كذاب ..

ـ صدقت . كنت أتوقع ذلك . فأنت لست إنساناً . وإنما أنت حيوان شرس يريد أن يوهم الناس بشيء آخر .

ـ آسف على هذه العبارة النابية .

ـ لو لم تقلها لاندهشت . بل يجب أن تقولها ليتأكد للناس الفارق بين أخيك وبينك .

ـ ولكن أين هم الناس ؟ إننا وحدنا .

ـ من قال ذلك ؟ أنظر وراءك ..

ونظر الأمير وراءه فوجد ألوف الناس قد انحنت رؤوسها حزناً على أخيه المريض . وضيقاً به .. وركع الأمير عند قدمي كونفوشيوس .. وانحنى كل الناس . وهنا قال كونفوشيوس : هذا ما أريد .. أيها الناس !

واتجه إلى الجماهير يشرح لها من جديد ما الذي يراه في حياة الإنسان على هذه الأرض ، وما الذي يتمنى أن يراه في الناس وبين الناس من أجل الناس في الغد والأجيال القادمة التي تعيش في سلام ومن أجل السلام .. بشرط أن يتم كل شيء بينهم بالذوق وبحسن السلوك . فهذه هي الحياة الحقة : قواعد وأصول وسلوك ومعاملة يلتزم بها الجميع فإذا فعلوا فلا خوف على أحد من أحد !

وهو على فراش المرض الأخير تلفت إلى تلامذته ليقول لهم : « عندما كنت في الخامسة عشرة بدأ عقلي يدرس كل ما حولي وما في نفسي ، وفي الثلاثين بدأت أراقب شخصيتي وهي تتكون . وفي الأربعين وضحت الرؤية أمامي ، ولم أعد قلقاً ولا مضطرباً . وفي الخمسين عرفت ما الذي توحي به السماء إلى كل إنسان ، أن يكون إنساناً فقط ولا يشغل نفسه بما عدا ذلك . وفي الستين أصبحت أهدأ وأكثر مرونة في معاملة الناس . وفي السبعين استطعت أن أمشي وراء قلبي دون أن أعدو على أحد ، ودون أن يعتدي عليّ أحد .. ولم يعد بعد ذلك ما أقوله أو ما أفعله . وأنتم تعرفون في هذا المكان هناك وراء الشجرة ادفنوني وانسوني أنا ، وعليكم بتعاليمي .. فهي أطول مني عمراً لأن العمر الحقيقي للإنسان هو أن تكون هناك إنسانية » ..

ومات . ودفنه تلامذته . وبكوا عليه ثلاث سنوات . وذبحوا الضحايا على رأسه وعند قدميه . وأقاموا معبداً ، ووضعوا له تمثالاً ،

وداروا حوله واخترعوا طقوساً أخرى ، وصلوات لم يقل بها .. وجعلوه إلٰهاً ، ولم يكن كذلك .. ولا قال إنه إلٰه ، أو حتى صاحب دين ، وإنما صاحب سلوك من أجل أن يكون الناس في غاية الأدب مع الأحياء ، وغاية الإيجاز في بكاء الموتى والترحم عليهم . لأن الحي كما يقول كونفوشيوس هو الموجود ، أما الميت والموتى فهم العدم !

ثورٌ أخضَر في طَـريقٍ طَويـل ..

ما الذي تريده من حياتك ؟ ما الذي تريده الحياة منك ؟ ماذا تقول لأبيك وأمك وولدك ؟ إذا كانت حياتك على الأرض طيبة ، فهل تشغل نفسك بالسماء ؟ وإذا انشغلت بالسماء عن الأرض فمن أنت ؟ وإذا وجدت رجلاً عاقلاً يكرهه الناس فماذا تقول ؟

وإذا وجدت أبله ساذجاً يحبه الناس فهل تشكك في الحكمة وطلب الحكمة ؟ ألا تسأل نفسك وما الذي يحبه الناس في الناس ؟

وأهم من هذا كله : هذا العناء هذا العذاب ، هذا الخوف من المرض ومن الفقر ومن القدر ومن الموت ما معناه ؟ إن الموت حقيقة . فلماذا تخاف الحقيقة ؟ إذن ما الذي يخيف الناس من الموت ؟ ربما لأنه حقيقة نريد أن ننساها . أو أنه يجيء فجأة فيقطعنا عن الناس وعن الحياة . ولكن إذا جعلنا حياتنا أقرب إلى الموت ، فهل نخاف الموت ونبكي على الحياة ؟

كل هذه الأسئلة أغرقت الفيلسوف الصيني لاو ـ تسو ومعناه الأستاذ الكبير . أو الشيخ الفيلسوف . وكان هذا الرجل فيلسوفاً شاعراً . عميقاً رائع العبارة باهر المعنى . جديداً . وغامضاً في نفس الوقت . اشتغل «الشيخ الفيلسوف» موظفاً في قصر الملك . أميناً لمكتبته . يقرأ

ويفكر . ويفكر أنه قرأ عشرين ألفاً من الكتب القديمة . ومئات الألوف من المخطوطات النادرة . وكان لا يتكلم إذا قرأ . لا يكلم أحداً . ولا يرد على أحد إذا سأله . ويقال إنه في إحدى المرات اقترب منه بعض الموظفين الصارخين . وأفاق من استغراقه ، ليجد النار قد أحرقت ثوبه . ويقال إنه لم يشعر بذلك . وفي إحدى المرات خرج يتنزه إلى جوار قصر الملك . ووقف أمام شجرة يحاول أن يتفاداها فلم يستطع . وإنما ظل واقفاً أمام الشجرة يدفعها بيديه لعلها تفسح له الطريق . وأحياناً يدفعها كأنها باب بيت . وتجمع الناس حوله ثم سحبوه بعيداً عنها ، ليقف أمام شجرة أخرى حتى الصباح !

وكان لاوتسو معاصراً لكونفوشيوس والتقى الإثنان في أحد الأيام وكان كل منهما يعرف قدر الآخر . ويعرف أنه مختلف عنه . وإن كان الهدف واحداً . كونفوشيوس : يريد أن تكون الحياة هي الرجولة والصلابة . وأن يكون الإنسان أقوى من الحياة ، ويكون الإنسان أسمى من رغباته . ليعيش سامياً ويموت أكثر سمواً . يقال إن كونفوشيوس سأله : وبعد هذه القراءة الطويلة المركزة ؟

وكان رد لاوتسو : لا شيء بعد ذلك . فأنا قرأت . وفهمت . وعانيت . وسوف أعود إلى تأمل ما قرأت . ويرى الناس من حولي كيف كانت حياتي وأصبحت . ودون أن أقول لهم شيئاً سوف يتغيرون .

وافترق الرجلان دون أن نفهم هل اتفقا ؟ هل اختلفا ؟ هل سيلتقيان في أي أرض بعد ذلك . لم يلتق الرجلان في أي أرض أو في أي طريق إلى الهدف الواحد !

ومن الغريب أن لاوتسو ملحد . ولكن تعاليمه وديانته تحولت

إلى ديانة خرافية . فقد عبدوه هو . وعبدوا معه إمبراطوراً صغيراً لا وجود له . ودخلت ديانة هذا الرجل في الدجل والشعوذة والتنجيم والعلاج الروحي والوثنية وإطالة العمر وإعادة الشباب ، واستخدام السحر . لقد أصبحت ديناً وثنياً أو متعدد الآلهة ، بعد أن كانت فلسفة مجردة ملحدة .

(وشيء من ذلك حدث في الغرب أكثر من مرة بعد ذلك . فالفلسفة الروحية لهيجل أصبحت الأساس الأول للماركسية المادية الملحدة ، واعتمدت عليها الفلسفة الوجودية الملحدة والوجودية المؤمنة).

ومن الأسماء التي اتخذتها فلسفة لاوتسو بعد ذلك بعدة قرون اسم ديانة «وو ـ واي» أي اللافعل . أو الإمتناع عن عمل شيء . لأن كل عمل شر . والخير هو ألا يعمل الإنسان شيئاً وإنما ينطوي على نفسه ويضم أطرافه بعضها إلى بعض ويجلس في هدوء ، لا يضر أحداً ولا يغوي أحداً بأن يتحرش به .

ومن الكتب المقدسة لفلسفة لاوتسو كتاب عنوانه «الطريق ومزاياه» في خمسة آلاف كلمة وواحد وثمانين فصلاً . وقد ترجم هذا الكتاب أربعين مرة إلى الانجليزية وحدها .

وقد عاش لاوتسو في القرن السادس قبل الميلاد . ولكن الذي جرى على فلسفته في القرون التالية ، قد جعله هو لا يستطيع أن يعرف فلسفته إذا قدر له أن يعيش مرة أخرى . إنها شيء أو أشياء أخرى خرافية ، ولم تعد فلسفية منطقية .

وفلسفة لاوتسو أو ديانته اسمها «التاوية» ـ أي فلسفة الطريق أو الديانة الطريقية أو الطرائقية . أو فلسفة : الطريق حياة ، والحياة طريق

ولكي نفهم « فلسفة الطريق » أو « ديانة الطريق » يجب أن نعود إلى المقطوعات الفلسفية الجميلة جداً التي كتبها لاوتسو ، وهو يظن أن حوارييه سيفهمونها بمجرد أن يستمعوا إليها منه .

مثلاً يقول :

عندما نعرف الجمال كجمال فإننا في نفس الوقت نعرف القبح وعندما يعرفون الخير كخير فإنهم يعرفون الشر أيضاً ، فالوجود واللاوجود كلاهما يخلق الآخر .

الوجه والظهر متلازمان .

الجبهة والقفا متلازمان .

السماء والأرض متلازمان .

الرجل الحكيم هو الذي يجعل نفسه في المؤخرة ليكون في المقدمة ..

وينصح لاوتسو كل إنسان : أن يهدأ ويتأمل ويتعمق ، وبعد ذلك سوف يصبح كل شيء ملكاً لك !

والمعنى الذي يريده الفيلسوف هو أنه إذا قلت عن شيء إنه جميل لأنه دقيق الملامح متناسب القسمات ، جميل العينين جميل الشعر طويل القامة ، ففي نفس الوقت عرفنا مقاييسك للجمال وعرفنا بالضبط ما الذي يعجبك دون أن تقوله أنت . وإذا قلت عن إنسان إنه طيب لأنه بار بوالديه ، عطوف على إخوته ، وأمين على زوجته ، فإننا نكون قد عرفنا مفهوم الإنسان الشرير .. أي العاق لوالديه ، القاسي على إخوته ، الخائن لزوجته ..

وحيث يكون وجه ، يكون في الناحية الأخرى قفا .. فاليسار واليمين متلازمان ، والشمال والجنوب متلازمان .

أي أن كل الأضداد موجودة معاً : فإذا قلت إن إنساناً مات ،

قلت في نفس الوقت إنه مات لأنه كان حياً ، ولأنه ولد قبل ذلك بسنوات .

وفي كل لحظة يفعل الإنسان شيئاً طيباً ، فإنه يمتنع عن فعل شيء آخر شرير وفي كل لحظة نقول نعم .. نكون قد قلنا لا .. دون أن ننطقها . فإذا قيل لك مثلاً : ما هي أحب فاكهة لك ؟ وكان جوابك : التفاح .. كان معنى ذلك أنك تفضله على كل أنواع الفاكهة الأخرى . فأنت قلت نعم للتفاح ، وفي نفس الوقت قلت : لا .. لكل الفواكه الأخرى .

والمعنى الأعمق من هذا كله : أن الإنسان عليه أن يختار في كل لحظة الأحسن والأرفع والأنفع والأفضل والأبقى . وليس عليك إلا أن تختار الأهدأ والمريح مرة واحدة . وبعد ذلك يمكنك أن تمضي في سلسلة الإختيار إلى ما لا نهاية له . وبذلك تكون إنساناً طيباً بصورة نهائية .

وهذا هو «الطريق» إلى الحياة الأفضل . والطريق نفسه حياة . أي أن هناك طريقاً إلى حياة ، وأن الطريق نفسه حياة . مثلاً : إذا ركبت سيارة متجهاً إلى الاسكندرية . فإن كنت سائقاً ، فأنت لا ترى إلا الطريق نفسه .. مساحة طويلة بها سيارات تحاول أن تتفاداها . وأنت كسائق لا تجد في الطريق متعة .. ولكن إذا كنت راكباً في استطاعتك أن تتلفت يميناً وشمالاً وتستمتع بالأشجار والهواء المنعش وتزاوج الألوان عند الشروق والغروب . فالطريق بالنسبة لك حياة .. وأنت والسائق تجلسان في مقعد واحد . هو يريد أن يفرغ من هذا الطريق ، وأنت تستمتع بالطريق .

والإنسان عادة يبدأ بأن يريد المشي في طريق حتى ينتهي منه .

وبعد ذلك يجد في الطريق متعة ، وهذا هو الكمال عند «ديانة الطريق» .

وأهم من ذلك كله أن تكون أنت طريقاً .. أي نموذجاً يمشي وراءه أو على نمطه الناس جميعاً .. فحياتك طريق للآخرين .. وأنت نموذج عملي لكل الناس ..

فأنت إذن مشيت في الطريق ، ثم استمتعت بالطريق والمشي فيه ، لتصبح أنت الطريق الحيوي والنموذج الرفيع لكل الناس . فإذا كان الناس جميعاً كذلك ، فهذه هي الديانة الحقة وليس من شأن الإنسان أن يفكر إلى أبعد من ذلك . فلا هو قادر ، ولا عمره يكفي لأن يفكر في الأرض والسماء .. ولكن هذا الفيلسوف لا يستبعد أن يجيء اليوم الذي ينشغل به الناس بالتفكير في السماء أيضاً .. تماماً كالطفل يعتمد على أمه أول الأمر ثم يعتمد على ساقيه . ثم يعتمد على نفسه ، ثم يكون آخرون يعتمدون عليه . فديانة الطريق ـ في هذه المرحلة ـ ليست إلا مراحلها المتقدمة في طفولتها وعندما تكبر بالناس ، ويكبر بها الناس ، فإنها سوف تكون شيئاً آخر رفيعاً عظيماً ..

ولا يمل هذا الفيلسوف أن يتغنى بالفضيلة وفضلاء الناس . ويرى أن الرجل الفاضل هو الرجل المنيع وأن هذه المنعة والمناعة ، قد جاءت من داخله . فهو الذي سد النوافذ في وجه الشر ، وهو الذي اصطفى أصدقاءه ، وهو الذي اختار طريقه واختار رفيق الطريق ..

يقول لاوتسو :

«إن الذي يملك الفضيلة أو تتملكه الفضيلة كأنه طفل صغير بريء .. الحشرات السامة لا تلدغه ، الوحوش الضارية لا تأكله ، الطيور الجارحة لا تدميه ، عظامه لينة ، ولكنه متماسك حركاته

بريئة ، ولكنها حكيمة ، قادر على أن يصرخ طول اليوم ، ولكن شيئاً لن يصيب حنجرته .

بل إن صراخه يقويه وينفخ صدره ويقوي عضلاته» .

ويقول الفيلسوف لاوتسو ، وكأنه ابن هذا العصر :

« كلما كانت هناك محرمات كثيرة في هذه الدنيا ، كان الإنسان أكثر ضعفاً وأكثر هزالاً وهواناً ..

وكلما كانت عند الناس أسلحة حادة ، ازداد اضطراب الناس ..

وكلما أحاطت بنا المغريات الشريرة احتجنا إلى قوانين أكثر .

وكلما زاد عدد القوانين ، زاد عدد اللصوص الهاربين من القانون» .

وهو صاحب العبارة المشهورة جداً التي ترددت في الثورة الفرنسية : «قل لي كم عدد القوانين والقوانين المعدلة ، وأنا أقول لك عن أنواع اللصوص والخونة في بلدك» .

ويقول أيضاً : «عندك شجاعة وجرأة ، سوف تكون قاتلاً .

عندك الشجاعة على ألا تكون لك جرأة سوف تعيش طويلاً» .

فما الذي تريده هذه الديانة باختصار : «أن تكون هادئاً كفرد ، وأن تكون مسالماً كعضو في مجتمع ، وأن تكون حاكماً عادلاً ، وأن تكون محكوماً آمناً . وأن يكون بين الناس سلام دائم .. فما دامت هناك طرق وكل إنسان يمشي في طريقه في حاله ، لا يعتدي على أحد ، ولا يستدرج أحداً إلى الإعتداء عليه . فهذا هو الحكم المثالي ، وهذا هو المجتمع المثالي ، والإنسان الكامل» .

والطريق إلى ذلك هو : إشباع الروح . والروح لا تشبع إلا عن طريق الفهم . والفهم لا يستقيم إلا عن طريق الاعتدال . والاعتدال هو ألا تكون متطرفاً . والتطرف هو أن تنكر الطريق كله ، وتمشي على

حوافه مضيقاً على نفسك كل شيء ، فتضيق على الآخرين أيضاً . فاعتدل تكن عادلاً . واسترح تكن مريحاً . وانظر إلى نفسك لا ينظر إليك الناس . وانشغل بالأرض عن السماء . وبنفسك عن الأرض . فأنت وحدك في هذا الكون . وما عداك أو من عداك ، لا تستطيع أن تفهمه . فأنت أصعب من أي شيء آخر . وإذا فهمت نفسك ، فهمت غيرك من الناس ومن غير الناس .

وشيء آخر يطلبه الفيلسوف لاوتسو : السرقة . يجب أن تكون سارقاً ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

وهو لا يريد من أتباعه أن يكون الإنسان لصاً ، يأخذ ما ليس له . وإنما أن يسرق نفسه من كل شيء حوله . أن يسرق نفسه من متع الحياة وأن يسرق نفسه من الإنشغال بشيء آخر غير التأمل . فالتأمل والإستغراق هما الملجأ أو الكهف الذي يأوي إليه الإنسان ، أي عندما يسرق نفسه فإنه يختبئ في كهوف التأمل . فأنت السارق المسروق ، وأنت الخائف وأنت الذي أجرت هذا الخائف وآويته من خوف ، وأطعمته من جوع .

ولا بد أن تكون فلسفة لاوتسو رد فعل لشيء عنيف في الصين . فالصين قد مزقتها القبلية واللغات والحروب ولا بد أن يجيء من يلغي الفوارق بين الناس ، أو يدعو إلى ذلك .. ومن يوحد الطرق كلها في طريق واحد . ومن يطلب من الناس أن يتحدوا ويتجهوا . وانتهت هذه الحروب عندما أنشئت حكومات مركزية متطرفة . هذه الحكومات المركزية المطلقة أصبحت نموذجاً لكل الحكومات الصينية في كل العصور إلى أن سقطت حكومة مانشوس سنة ١٩١٢ .

وبعبارة حديثة : يمكن أن يوصف الطريق بأنه ليس انفتاحاً في

الأرض وفي المزارع والغابات والجبال تمشي فيه .. ولكن الطريق مثل البساط المتحرك الذي نجده في بعض المطارات الأوروبية .. نقف فوقه فيحملنا وحقائبنا إلى ناحية أخرى من المطار .. والطريق ليس سلماً فقط نصعده .. ولكنه يشبه سلم عربات الحريق .. إنه يرتفع .. يصعد بنا أيضاً .. أو هو يشبه الطائرة التي نتحرك فيها إلى الأمام وهي في نفس الوقت تتحرك دون أن ندري .. أو مثل هذه الأرض التي تدور بنا بسرعة ، ونحن نتحرك عليها .. ولكننا لا نشعر بحركتها ..

ويقال إن كونفوشيوس وكان أصغر سناً عندما رأى لاوتسو قال له : ما هذا الذي أراه ؟

فرد لاوتسو : لا شيء .. إن الحياة تركب اللاحياة .

وتفسير ذلك أن لاوتسو كان يركب ثوراً أخضر . فهو الحياة . أما الثور فليست له فضيلة ليست له حياة .. وإن كان حياً ، فهو لا حياة .. لأنه ليس عاقلاً ويستحيل أن يكون . وكل شيء في هذه الدنيا يلازم شيئاً آخر مضاداً له !

أنْ يكونَ هُنَاكَ طَريق إلىٰ شَيْء !

هذه الورقة لنكتب عليها . هذا القلم لنكتب به . هذه السيارة لنركبها . هذا الشارع لنمشي فيه . الهواء لنشمه . الماء لنشربه . الشمس لتنير لنا . والقمر أيضاً . وابنك لكي تحبه . وأبوك لكي يحبك ـ وأنت ما معناك ؟

هذه الشفاه لتقول . هذه العيون لترى . هذا الأنف ليشم . وقلبك ما فائدته ؟

هذا المطر ليروي الأرض .. هذه الأرض لنسكن إليها وعليها .. هذه الوحوش لتصيدها ـ وإيمانك ما قيمته !

وأنت طفل لتصبح رجلاً . وأنت رجل لتصبح شيخاً . وأنت شيخ لتندم على شبابك ـ والموت ما حكمته ؟

هذه التساؤلات عمرها أكثر من ألف سنة . ولا أحد يعرف من السائل ومن المجيب . ولكن كتب الديانة اليابانية قد احتفظت بها لنشرها من حين إلى آخر . ومنها نعرف أن اليابانيين قد لاحظوا وحاولوا أن يفهموا . وهذه التساؤلات لم يستطع أحد أن يجيب عنها . فقد تكفلت ديانات أخرى أقدم بفهمها وإفهامها . البوذية فعلت ذلك .. والكونفوشية أيضاً .

ولم يفلت مذهب ديني واحد في آسيا كلها من أثر البوذية والكونفوشية . كما أن الديانات بعد ذلك لم تقدر على صد اليهودية والمسيحية والإسلام بعد ذلك . فقد اختارت منها الكثير ..

وفي اليابان الآن دين اسمه «شنتو» أو شندو . وهذا الدين معناه : السبيل .. الطريق .. الصراط المستقيم .. الدرب السوي ..

وكل الديانات الصينية والهندية قد اتخذت الطريق وسيلة للوصول إلى معنى كبير . أو على الأصح لتحقيق الأخلاقيات العامة . والأخلاقيات العامة معناها : أن يكون للناس جميعاً سبيل واحد ، يمشون فيه أو على هداه . ليكون الخير عامّاً بين الناس ، والسلام طعاماً وشراباً وهواء للجميع . كل هذا على الأرض . أما السماء فلها رب أو أرباب يحمونها من أنفسهم ومن الإنسان .

وفي الأساطير اليابانية القديمة تقرأ عن الشعب الياباني أنه يهيم على وجهه في الأرض .. إلى كوريا والصين .. لا بيوت ولا عائلات . لماذا ؟ لا إجابة عن ذلك . ولكن هذا الضياع كان مقدمة ، أو مبرراً ، لظهور ديانات تجمع بين الناس . ولذلك قام الأباطرة بجمع الناس حول قصورهم . وكانت القصور هي النعيم المقيم .. وكان الناس هم العذاب والهوان الذي دار حول معنى واحد : الامبراطور . ابن السماء . أو السماء الذي سوف ينقذ الجميع من الجميع .

يقال إن أحد الأباطرة جمع الحكماء في دولته . وكان عددهم ٨٠٠ رجل . ويقال ثمانون رجلاً . وطلب إليهم أن يلتفوا حوله . وقال : أريد أن تقع عيني دائماً على رجل عاقل . فكونوا حولي .

والتفوا حوله . وسكت الامبراطور طويلاً . ولم ينطق أحد بكلمة .

ثم وقف الامبراطور بين حكمائه . وقال : يا حكمائي لماذا ساءت الحال بين الناس ؟

فلم ينطق أحد .

وعاد يقول : يا حكمائي لماذا يهرب الناس من بلادي ! يا حكمائي لماذا يقتل الإبن أباه ؟ ويهرب الرجل من زوجته ؟ لماذا يشبع اللص ويجوع الشريف ؟

فلم ينطق أحد .

وقال الامبراطور : يا حكمائي لماذا لا ينطق حكمائي ؟ إذا سكت العقل فمن الذي يتكلم ؟ إذا خرس الصدق فمن الذي يبشر الناس ؟ إذا تحولت رؤوس الطيبين إلى أحذية في أقدامهم فأي شيء أشرف من الرأس يوضع على الكتفين ؟

ولم يجب أحد من الحكماء .

وعاد يقول : يا حكمائي لماذا يتكلم الملوك كثيراً ، والناس قليلاً والعقلاء نادراً ؟ هل لأن في يدي سيفاً .. إذن سوف أرميه ..

ورمى السيف بعيداً . وأشار إلى حراسه أن يخرجوا من القصر . ولكن أحداً لم يتكلم ..

وعاد يقول : يا حكماء العالم . هل لأني أرتدي ملابس من ذهب .. وأضع عطراً نادراً . وأنني أكلت طعاماً شهياً . ونمت نوماً دافئاً . وأحمل مفاتيح الرزق والأرض والسماء ؟ إليكم ملابسي . وخلع ملابسه .. ولكن الحكماء لم يتكلموا .

ثم جلس الملك حزيناً على ما أصابه .. وأصاب العقل في زمانه . ووقف أحد الحكماء وقال : الآن أتكلم ..

ثم جلس هذا الحكيم . ووقف حكيم ثان وقال : إن لدى جاري شيئاً هاماً سوف يقوله .

وأشار إلى جاره ليتكلم . ووقف الجار ليقول : إن جاري لديه ما يقوله ضد الإمبراطور .. ووقف الجار ليقول : وجاري هذا لديه ما يقوله ضد حاشية الإمبراطور .. وأولاد الإمبراطور . وأقارب الإمبراطور .. ووقف حكيم سادس وسابع .. والحكيم الثمانون قال : أرأيت يا صاحب الجلالة ما الذي يجعلنا نسكت . وما الذي يجعلنا نقول الحق ؟

وأحنى الإمبراطور رأسه حتى قارب الأرض ليقول : إنه سيفي وملابسي وحراسي . .

وقال أحد الحكماء : أبداً ليس ذلك . وإنما الذي جعلنا نتكلم .. أنك طلبت النصيحة . وكنت صادقاً ومخلصاً . وأنك تعني ما تقول . وأنك استمعت إلى النصيحة عارياً متواضعاً بلا سلاح ولا ذهب ولا رجال .. هذه هي الطريقة . فالحاكم يخاف .. والحكيم لا يخاف الحاكم !

والمعنى من وراء هذه المسرحية القديمة جداً . هو أن الإمبراطور إذا صدق ، صدق كل الناس . وأن الملك إذا تواضع ، تواضع كل الناس .. وإذا طلب النصيحة استفاد كل الناس ..

وفي ذلك اليوم من حوالي خمسة وعشرين قرناً يقال إن الملك ذهب إلى الحمام . وألقى بنفسه في الماء الدافئ المعطر . ويقال إنه نام على وجه الماء . ورأى في نومه أن بيتاً صغيراً مغلق الأبواب والنوافذ . وأن هذا البيت تدور حوله الطيور والحيوانات والناس . ولكن أحداً لا يقترب منه . ولاحظ الملك أن الناس والحيوانات والطيور والزهور

كلها تدور في صمت . لا أحد يتكلم . ولكن طفلاً صغيراً دق الباب وانفتح الباب .. ومن وراء الباب خرج النور إلى كل الدنيا . وقيل للملك في تفسير هذا الحلم . أن الطفل هو التواضع .. وأن البيت هو الحكمة .. وأن الحكمة لا يبلغها الإنسان إلا إذا تواضع . وأن المتواضعين وحدهم هم القادرون على نشر الخير بين الناس . وصحا الملك ليقول للحكماء : احكموا أنتم . أما أنا فلا أصلح للحكم . فأنا لم أعرف التواضع في حياتي ، ولا البساطة في طعامي أو شرابي . اختاروا من بينكم حكيماً . يهدي الناس جميعاً إلى سبيل سواء . !

وهذا هو أساس الديانة اليابانية : شنتو .. أو الشنتوية . وهذه الديانة ليس لها رسول ولا نبي . ولا مصلح . ولا رجل واحد . وليس لها كتاب مقدس . ولكنها خلاصة التعاليم السابقة بعد أن هذبها اليابانيون وجعلوها على «مقاسهم» أو على قدر احتياجهم من هذه الحياة .. اليابانيون لا تهمهم الحياة الأخرى ولا يعرفون عنها شيئاً . فهذه الدنيا تكفي . وهموم هذه الدنيا تحتاج إلى أكثر من دين لتوضيحها . ولذلك اكتفوا بهذه القواعد في السير والسلوك وحياتهم اليومية العائلية والعملية . واكتفوا بعدد من الطقوس والأعياد الدينية وأعياد الطبيعة والمحاصيل والإخصاب .

حتى جاء الأمريكان واحتلوا اليابان واقتلعوا القداسة من دينهم . وجعلوا دينهم بلا قداسة . أو بلا مقدسين . وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٥ أعلنت قوات الاحتلال الأمريكية أن ديانة شنتو ليست الدين الرسمي للدولة . وكل إنسان حر في أن يختار الدين الذي يعجبه . وأن الدين ليس علماً مقرراً على الطلبة في المدارس . وأن رجال الدين

ليسوا موظفين في الدولة . ولا داعي لأن يدفع الناس من مرتباتهم وثرواتهم نسباً عالية لبناء المعابد وإطعام رجال الدين ..

وأهم من ذلك لم يعد الإمبراطور نفسه مقدساً . لا هو إله . ولا هو ابن الشمس . ولا هو معصوم من الخطأ . ولا قراراته قضاء وقدر . إنه إنسان عادي جداً . ومعنى ذلك أن عصيانه ممكن . والخروج عليه وعلى أسرته واجب كل ياباني . وكان الإمبراطور قبل ذلك يدعو الشعب إلى القتال . ويكون القتال باسم السماء . والموت من أجل الإمبراطور أسمى غايات القتيل .. ولذلك كانت الحروب اليابانية حروباً مقدسة .. وأذكر وأنا في طوكيو بالقرب من القصر الامبراطوري ، أن صحوت من شرودي على المرشدة السياحية وهي تشير إلى قصر الإمبراطور : هه .. إنه يسكن هنا .. كان لا بد أن ننتظر القنبلة الذرية لكي يصبح هذا الإله المقدس إنساناً عادياً ..

وضحك كل السياح . وفي إحدى دور السينما ظهر إمبراطور اليابان وألقى كلمة . ولا أفهم طبعاً ما قال . ولكن السينما كلها تماوجت بالضحك .. إذن لم يعد إلهاً .. لقد أممه الأمريكان وأعادوه إلى حجمه الطبيعي من الكرسي الذي يجلس عليه والقصر الذي يرتع فيه ، والدولة التي ورث حكمها المقدس ، أو حكمها الذي لم يعد مقدساً الآن ..

والشنتوية هي « كوكا شنتو » .. أي الدين الرسمي للدولة . وهي الآن دين . ولكنه ليس الدين الوحيد . ففي هذه الديانة طوائف أخرى كثيرة . فهناك من يعبدون الجبال والبراكين والغابات والشمس وبقية مظاهر الطبيعة . ومن الممكن أيضاً أن يكون للياباني أكثر من دين . شنتوي مسيحي . أو شنتوي يهودي .. أو شنتوي مسلم .. ممكن هذا ولا أحد يعترض عليه . أو يتدخل في شأنه . وهناك طقوس واحدة

للصلوات والدعوات . ولكن ليس من الضروري أن يذهب الناس إلى معبد واحد . ففي إمكان كل متدين أن يقيم لنفسه معبداً صغيراً في أحد أركان البيت ويصلي للإله الذي استراح إليه هو ، أو أجداده من قبل .

وهذا هو أول تحرر ديني في اليابان من ألوف السنين . فقد كانت الدولة هي الدين . وكان الملك هو رأس الدين وهدفه وغايته . صحيح أن الإمبراطور هو ابن السماء ـ كان ابن السماء ـ ولكن الأساطير اليابانية ترى أن هناك آدم وحواء ـ ايزاناحي وايزانامي ـ ومنهما ولدت الشمس . ومن الشمس ولدت الدنيا .. ولكن الإمبراطور ولد من الشمس قبل ولادة الدنيا .. وليس من حقك أن تعرف من أي أنواع الشقوق في الأرض خرج الإنسان .. فإذا عرف ، أو لم يعرف فالمهم أن الإمبراطور هو سقف الدنيا وقمتها .

وقد أعلن الإمبراطور في بيانه الرسمي المشهور : أن الرابطة التي بيننا وبين الشعب ، قائمة على الثقة والحب المتبادل . ولم تعد هذه الروابط تستند إلى الخرافات التاريخية . ولا يمكن أن تقوم على هذا الوهم الكاذب بأن الإمبراطور مقدس ، وأن اليابانيين هم سادة العالم ، وأنهم لذلك يجب أن يحكموا البشرية كلها .

وبذلك أسقط الإمبراطور نفسه ودينه .

ولكن الديانة الشنتوية ليست ديانة بلا مقدسات . وإلا لم تكن ديناً . فما يزال هناك رجال الدين ، والكتب الدينية . والقيم والأخلاق . ولا يزال الأجداد مقدسين . والموتى مقدسين أيضاً . ولا يزال الجسم الإنساني رذيلة يجب التحكم فيه أو التخلص منها . والشنتوية تدعو إلى طهارة اليد والنفس أيضاً . وإذا كان كل إنسان يستطيع أن يكون

له أو لا يكون له دين ، فمن حق أي إنسان أن يكون كاهنا . ولم تعد الكهانة وراثية .

وفي بعض المعابد اليابانية يغسل الإنسان يديه . وفي ذلك إشارة إلى الطهارة أو الرغبة فيها أو الإيمان بضرورتها . فهو يغتسل . أو يتوضأ .. ثم إنه يملأ فمه بالماء ويلقيه جانباً وفي ذلك إشارة إلى غسل فمه أيضاً من كل طعام حرام ، وكلام مسموم . وألا يقول إلا الصدق على نفسه وعلى غيره .. وفي مداخل بعض المعابد أيضاً تتعلق حبال وأجراس ومقشات .. وكل متدين يمر بها يهزها . وهو بذلك يشير إلى أنه قد نقل إليها خطاياه .. ومن ذلك تطهر . فهذه الأجراس تعلن أن أحداً جاء يطلب التوبة . وهذه الحبال إشارة إلى السماء ، وهذه المقشات إشارة إلى الرغبة في كنس الرذيلة من جسمه ومن نفسه .. كل يوم .

ـ وبعد ذلك هل الشنتوية دين ؟

ـ ليست ديناً ولكنها كالدين .

ـ هل لهم رب ؟

ـ لا رب لهم .

ـ هل هناك حياة بعد الموت وهل هناك حساب وعقاب وجنة ونار ؟

ـ ليسوا على يقين من هذا كله . فلم يفكروا في شيء من ذلك . وقد نبههم رجالهم وحكماؤهم إلى أنه من الصعب البحث في هذه القضايا السامية .

ـ إذن لماذا يفعل الإنسان الخير ؟

ـ لأنه هو الصحيح .

ـ ولكن الأشرار يرون أن الشر أمتع وأنفع وأنه هو الصحيح ؟

ـ إنهم يغالطون . ولا يمكن أن يكون خطف الطفل من صدر أمه خيراً .. ولا يمكن أن يكون إلقاء الفقير عارياً في المطر خيراً .. ولا يمكن أن يكون كرش الإمبراطور خيراً .. ولا يمكن أن يكون ذهب زوجته ومجوهراتها وكروش أقاربهم خيراً .. ولا يمكن أن يكون الإعتداء على حرمات الناس خيراً ..

ـ ولكن ما هي الفائدة من أن يكون الإنسان نظيفاً ، ما دامت نظافته لا تجعله من حاشية الإمبراطور ؟

ـ لأن الإمبراطور فاسد .. وعندما يصبح الإمبراطور نظيفاً فسوف يلمع كل شيء في قصر الإمبراطور حتى أظافر كلابه ..

ـ وما هو الحل ؟

ـ لا حل .. إذا انصلح الناس اعتدل الإمبراطور ..

ـ وإذا اعتدل الإمبراطور انصلح الناس ؟

ـ لا يمكن أن يعتدل الإمبراطور إلا إذا الشعب اعتدل .. وإنما يعتدل الإمبراطور الواحد إذا اعتدل الشعب بالملايين .

إلى آخر هذا الحوار الذي سجلته أديبة يابانية في إحدى قصص الأطفال .. القصة اسمها «الشجرة والجبل والنهر وما بعدها» .. الأديبة اسمها : يوكوتيجاوا .

والذي قالته للأطفال ، هو الذي يمكن أن يقال للكبار أيضاً .. وفي مقدمة هذا الكتاب قالت المؤلفة هذه العبارة توجهها إلى أولياء أمور الأطفال الصغار : «الطريق الطويل سلامة ، والطريق القصير ندامة . ولكن أفضل أن يكون للإنسان طريق ، من أن لا يكون له ! » .

وَأينَ مَكَان لا يُوجَدُ بهِ الله ؟!

عندما توفي هذا الرجل اختلف الناس : ما الذي يفعلونه بجثته ؟ قال المسلمون : ندفنه على سنة الله ورسوله . وقال الهندوكيون : بل نحرقه على سنة العزيز عندنا والغالي علينا .. وقال آخرون : بل نتركه حتى تجيء الطيور وتأكل لحمه .. وبذلك يدفن في بطون الطيور .. تدفنه في السماء !

ولم يتفقوا على شيء . وتسلل من بين الجموع طفل صغير . وتقدم من جثة الميت . ورفع عنه الغطاء . وصرخ الناس جميعاً .. لم يجدوا الميت وإنما وجدوا باقة من الزهور !

هذا الرجل الهندي اسمه : ناناك ولد بالقرب من لاهور في ولاية البنجاب سنة ١٤٦٩ . تأثر كثيراً بالدين الإسلامي . وأعجب ببساطته وسماحته . وأن الله واحد . وأنه هو الأول وهو الآخر ، وهو من وراء وقبل وبعد كل شيء . ولكنه في نفس الوقت تأثر بالديانة الهندوكية . فهو لا يؤمن بيوم القيامة ولا الحساب ولا العقاب . ولا الحياة بعد الموت . وإنما يرى أن الإنسان عندما يموت فإن روحه تغادر جسده وتنزل في جسد آخر .. وهكذا ألوف أو ملايين المرات . فالأجسام تتساقط والروح تتصاعد . والروح تنتقل من ثوب إلى ثوب ، أو من

مكان للطهارة إلى مكان آخر .. حتى تتم طهارتها وصفاؤها في النهاية . وتجيء النهاية سريعة أو بطيئة . فالروح لا تعرف متى يكون لها الخلاص .

ويرى ناناك أيضاً أن الله هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنسان . ولا تهم أبداً الطريقة التي يستخدمها الإنسان في الوصول إلى الله . أو الاتصال به .. أو الفناء فيه . وإن كان هو يكره كلمة «الفناء» هذه . ويفضل عليها كلمة «الاتحاد» بالله .. ويتصور ناناك هذا أن الروح عندما تتحد بالله ، فإنها لا تفنى فيه وإنما تبقى ذات وجود متميز ويقول : «تماماً كما تسقط قطرة العرق من جبينك إلى ماء المحيط .. إنها لا تذوب فيه ، ولكن تبقى وحدها فيه» ؟! ..

ويقول ناناك : إن إرضاء الله أهم من إرضاء الناس .

ويرى أن هذه العبارة الصغيرة هي أهم أسس هذه الديانة .. وديانته اسمها : ديانة السيخ . وهذه الكلمة معناها : التابع أو التلميذ .

وهذا الرجل ناناك ، كان مثل بوذا والمسيح ، لا يريد أن يكون صاحب دين . ولا نبياً . وإنما هو رجل أراد إصلاح الأديان السائدة . وهي شديدة التعقيد . حاول أن يجعلها أبسط وأيسر . واستعان بالإسلام ليحقق هذه الغاية .

يقول ناناك : «لماذا يذهب الإنسان إلى الغابة ليفكر في الله ، لماذا يجلس في مواجهة البحر أو الجبل أو حتى ينظر إلى السماء لعله يجد الله .. إن الله في كل شيء ، وقبل كل شيء . كان موجوداً قبل أن يكون له اسمه ، وقبل أن يخلق الكون . إنه موجود في هذا الكون كله مثل وجود العطر في الزهرة ، والنور في الشمس . هكذا يكون وكان وسوف يكون» .

ويقول أيضاً : «هذا الكون يستمد حقيقته من وجود الله . ولكن

الإنسان لا يشعر بالله حقاً إلا إذا أحب .. أحب الخير وأحب السلام وأحب الصدق . في لحظة الحب تكون لحظة الاتحاد بالله . ولا يصفو الإنسان إلا إذا أحب ، ولا يكتمل صفاؤه إلا إذا كان هو الحب ! » .

أما الإنسان ، أي إنسان ، فهو يرى أن الإنسان يرث صفات أبويه ، وصفات الأسرة وصفات الإنسانية كلها . لأن روحه قد تنقلت قبله إلى أجسام كثيرة ، وسوف تتنقل بعده إلى أجسام أخرى .. ولكن هذه الروح ليست مجرد طائر معذب يسقط من فرع شجرة إلى فرع شجرة أخرى .. إنه طائر له إرادة . ومن إرادته هذه يقرر ما يراه مناسباً له . فإن فعل خيراً ، فالخير من عند الله ، وإن فعل شراً ، فهذا الشر من عنده هو .. حتى إذا صفا هذا الإنسان ولم يعد قادراً على أن يكون شريراً . وهذا العجز عن الشر ، هو منتهى الاقتدار على أن يكون مثلاً أعلى .. » .

وناناك يرى أن الصفاء أو الخلاص لا يشبه «النرڤانا» عند الهندوكيين . لأن النرڤانا معناها أن تنعدم في الإنسان كل رغبة في شيء ولكن الصفاء في ديانة السيخ هو منتهى الإيجابية في تحقيق الخير عند الإنسان . وديانة السيخ ليس فيها أناس مقدسون ، كالمسيحية مثلا . وإنما فيها أناس طيبون . نماذج بشرية . في استطاعة الإنسان أن يمشي على طريقهم . وأن يكون مثلهم . ولكن القديسين في المسيحية نماذج بشرية يصعب تحقيقها ، إن لم يكن مستحيلاً ثم إن المؤمن يطلب إليهم أن يعاونوه على التغلب على صعوبات الحياة والموت وما بعد الموت ..

ورجل الدين عند السيخ اسمه : جورو أي المعلم . والمعلمون عندهم عشرة فقط . آخرهم أعلن أنه لا أحد من بعده . وأول هؤلاء المعلمين

هو ناناك هذا . الذي أرسى لهم أصول الإيمان والمعاملات والصلوات والتراتيل .

ومعارك الإنسان كلها في داخله هو .

فهناك خمسة من الأعداء يجب أن يقاومهم الإنسان . وأن ينتصر عليهم . بل أن يستعين بهم الواحد ضد الآخر . حتى ينهزم ، أي حتى يهزم نفسه بنفسه ، ويكون انهزامه هذا هو قمة النصر . أما أعداؤه فهم : الشهوة والغضب والطمع والتملك ثم الغرور .

وله عبارة تقول : من تغلب على نفسه ، تغلب على الدنيا .

وتتابع من بعده المعلمون . وأهم هؤلاء المعلمين جميعاً هو جوبند سنج وهو المعلم العاشر . وهو الذي طلب إلى كل السيخ أن ينادي الواحد منهم الآخر بكلمة : بهاي .. أي أخ .. فكلهم إخوة . وكلهم متماسكون أو يجب أن يتماسكوا في وجه الأغلبية الساحقة من الديانات الأخرى . فعدد السيخ في البنجاب وفي الهند كلها لا يزيد على عشرة ملايين . وهم منتشرون في أوروبا وأمريكا . وقد اشترك السيخ في حروب كثيرة ، انكسروا وانتصروا فيها . وأدت هذه الحروب إلى تقاربهم أكثر . وإلى حرصهم على أن يظهروا وأن يجاهروا بدينهم . ولذلك جعلوا لهم ملابس متميزة . فهم يطلقون شعر الرأس واللحية مدى الحياة . ويضعون عمامة على الرأس يلفونها بطريقة خاصة . ويضعون مشطاً صغيراً في الرأس . ويضعون سيفاً صغيراً وراء الأذن . دليلاً على الشجاعة وعلى الإباء ، وعلى أن السيف ليس من أجل القتال ، وإنما للدفاع عن النفس فقط . ويضعون في أيديهم أسورة معدنية دليلاً على أنهم يعتدون بدينهم . وأن دينهم هو الذي يضبط نفوسهم عن الخطايا .. ثم إنهم يفضلون ارتداء البنطلون القصير ،

ليكونوا أخف حركة إذا اقتضت الضرورة ذلك .. وإذا قابل واحد منهم الآخر فإنه يقول له على سبيل التحية : الصدق أبدي !

وكان من عادة الهنود أن تحرق الأرملة نفسها بعد موت زوجها . وجاء المعلم العاشر وحرم ذلك تماماً . وقال : «إنما المرأة تحرق نفسها حزناً على زوجها .. إنها الحرقة وليس الاحتراق» .

وقد سبق بذلك البريطانيين بمئات السنين .

وسمح للسيخ أن يأكلوا اللحوم بشرط أن يتولوا هم ذبحها . وأن يكون الذبح بضربة واحدة من السيف ـ وهم أقرب إلى اليهود منهم إلى المسلمين .

ومن تعاليم السيخ أن يصحوا كل يوم في الثالثة صباحاً يستحمون بالماء البارد . ثم يقرأون بعض الآيات . وفي الليل يصلون أيضاً . وقبل النوم يقرأون بعض التراتيل . والإمام العاشر نهى عن الحج إلى أي مكان . لأن الحج يؤدي إلى انتشار الأمراض .

وتعرض السيخ لغارات المغول في أيام المعلم العاشر (١٦٧٥-١٧٠٨) . ولذلك جمع رجاله وطلب منهم التضحية المطلقة . ويروى عنه أنه وقف تحت خيمته في أحد الأيام وصرخ : أريد خمسة يموتون فوراً . وتقدم خمسة . ودخل بهم الخيمة . ثم خرج والسيف في يده غارق دماً . وبعد لحظات أشار إلى الخمسة أن يعودوا فعادوا . ثم أتى بإناء من الحديد . ووضع فيه طعاماً وراح يقلبه بالسيف . وأكل الجميع في إناء واحد ، فلا تفرقة بين معلم وتابع . ثم باركهم . وأصبح من طقوس السيخ أن يأكلوا من طعام واحد في المعبد . وبعد ذلك قام «المعلم العاشر» واختار منهم جماعة سماهم «الخلصاء» أو «الأصفياء»

وطلب إليهم أن يرووا للناس ما رأوا . وأن يدعوا الناس إلى هذا الدين المسالم .

والسيخ لا يدخنون ولا يشربون الخمر . ويفضلون الزواج في سن متأخرة نسبياً . فقد كان معلمهم الأول ناناك تعيساً عندما تزوج في الرابعة عشرة من عمره . وأنجبت له زوجته ولدين . وهاجر من بيته ومن قريته إلى الهند الواسعة يطلب الحكمة . ونفى عن نفسه أنه يحتقر الجسد ، أو يكره المرأة . فقال : كيف أحتقر المرأة التي ولدت كل هؤلاء العظماء في التاريخ ؟

وقال عن المرأة أيضاً : إنها ضمير الرجل ..

وهذه الديانة قد جمعت خلاصة كثير من الأديان التي التقت في البنجاب . وفي هذه المنطقة من شبه القارة الهندية التقى كل أبناء الحضارات القديمة : الفرس والإغريق والمسلمون . واختلطت لغاتهم باللغات المحلية ودماؤهم أيضاً . وأمام هذا الاختلاط الهائل من الألوان واللغات والديانات ، كان لا بد للسيخ أن يتحدوا . واتحدوا وتماسكوا . وهم الآن أكبر دليل على نجاح الأقلية النشطة المتماسكة في الهند وخارجها .

ويقال إن المعلم الأول ناناك عندما مرض سأله واحد من أتباعه : قل لنا يا معلم ما الذي تشكو منه بالضبط ؟ فقال المعلم : لا أشكو من شيء .. وإنما أتوجع على وجه العموم .

ولم يفهم تلميذه فعاد يقول له : هل ذراعك ؟

ـ لا .

ـ هل بطنك ؟

ـ لا .

ـ هل عقلك ؟

ـ لا .

ـ إنني لم أفهم بالضبط ما الذي يوجعك ؟

ـ لأنني لا أعرف بالضبط ما الذي يوجعني .. إنني أشعر تماماً كأنني أخلع ثوبي .. وهذا الثوب مشدود إلى جسمي .. ومثبت فيه بالخيوط والإبر .. والثوب يشدني .. رغم أنني أنا الذي أنسحب عنه .. بالضبط روحي هكذا .. إنها هي أيضاً تنسحب من الثوب .. تنسحب من الجسد .. الذي ملأته وارتبطت به وتعذبت فيه وبسببه .. إنها تريد أن تفك السلاسل والقيود .. وليست أوجاعي وصرخاتي إلا صوت السلاسل .. هل فهمت ؟

ـ لم أفهم يا معلمنا .

ـ صدقت ـ فهذا لا يفهمه الإنسان لأنه لا يراه ولا يحس به إلا مرة واحدة عندما يموت !

وعندما استأذنه واحد من تلامذته في أن يتزوج قال له المعلم الأول : كيف عروسك ؟ قال التلميذ : جميلة يا معلمنا .

ـ كيف جمالها ؟

ـ حلوة الملامح ..

ـ قلت لك كيف جمالها ؟

ـ تحبني وتريد أن تنجب لي عشرة من الأولاد كلهم من السيخ المخلصين .

ـ قلت لك ما جمالها ؟

ـ تحب أبويها وتصلي وتدعو لكل الناس . وسوف تجعل أطفالها يفعلون ذلك .. وأطفال أطفالها أيضاً .. أليس هذا عملاً عظيماً ..

أليس هذا واجب كل مخلص ومؤمن يا معلمنا ؟

ـ لم تحدثني عن جمالها ..

ـ لم أفهم يا معلمنا .

ـ جمالها هو : كيف تجعل موتك سهلاً .. كيف تجعل خروج الروح من جسمك سهلاً .. كيف تستعد هي الآن لتجعل خروج روحها من جسمها سهلاً .

ـ لم أفهم .

ـ هل تحب الطعام ؟

ـ نعم .

ـ إذن ليست جميلة .

ـ هل تحب النوم إلى جوارك كثيراً ؟

ـ كثيراً جداً !

ـ إذن ليست جميلة .

ـ هل تتعلق بك إذا خرجت وإذا دخلت وتبكي لأتفه الأسباب ؟

ـ نعم .

ـ إذن ليست جميلة .. اقتلها ! اقتلها !

ـ كيف يا معلمنا ؟

ـ اجعلها تأكل أقل وتنام أقل وتبكي لك وعليك أقل ..

ـ وإذا فعلت ذلك ؟

ـ تكون زوجتك جميلة !

وكثير من النوادر والحكم قد انتشرت من بعده في الكتب . ولم يضف إليها أحد من المعلمين العشرة إلا القليل جداً .

ويقال إن هذا «البابا» أو المعلم الأول كان ذا عقلية واسعة . وروح

رحبة . وكان شديد التسامح ، وكان يطلب من المؤمنين أن يتزودوا من كل دين ، بشرط أن يتمسكوا بأن الله واحد . وأن الحياة والموت في هذه الدنيا ، وليس بعد ذلك شيء . ويقال إنه قرأ القرآن الكريم وحفظه وهو طفل . وأنه سأل أستاذه وهو يدرس اللغة العربية واللغة الفارسية : ولماذا كان حرف الألف مستقيماً ؟ ولم يستطع أستاذه أن يجيب عن هذا السؤال . وقال هو وكان في السادسة من عمره : إن الألف هي الواحد . والواحد هو الأحد . والأحد هو الله . ففي هذا الحرف بداية كل شيء . كما أن الله بداية كل شيء !

ويقال إنه عندما ذهب إلى مكة . وزار الكعبة المكرمة وطاف حولها . تربع إلى جوارها . ثم تمدد ونام . وجاء واحد يستنكر هذا النوم قائلاً : كيف تنام هكذا ؟ كيف تمدد رجليك في اتجاه الكعبة ؟ كيف تضع رجليك في وجه الله ؟!

واعتدل المعلم الأول ناناك ليقول عبارته الحكيمة : أعطني مكاناً يخلو من الله لأضع فيه ساقي وقدمي !

وهذا هو جوهر فلسفة السيخ !

طريقة غامضة لتوضيح كل شيء !

ديانة يابانية اسمها : زن . أو اسمها : زازن . أي ديانة التأمل في شيء أو في كل شيء . وهذه الديانة ليست جديدة . وإنما هي أحد الاجتهادات في الديانة البوذية القديمة . وقد ظهرت ديانة زازن بعد وفاة بوذا نفسه بحوالى ألف سنة . وعلى الرغم من أن هذه الديانة محاولة لتبسيط الديانة البوذية ، فإنها جاءت أعقد وأعمق . وإذا نحن طالعنا تلك المحاورات بين الطالب وأستاذه ، أي بين المؤمن العادي وأستاذه الراهب المتمكن في هذا الدين وجدنا شيئاً عجيباً .

فالأسئلة فقط هي الواضحة . أما الإجابات فألغاز أخرى جديدة تحتاج إلى حل . ولكن الراهب يترك الطالب يضرب رأسه في الحائط دون أن يدله على شيء . بل إن بعض الرهبان يرى أن عملية ضرب الرأس في الحائط ، أسلوب مطلوب . لعل اهتزاز رأس الطالب يؤدي إلى أن تنفتح فيه طاقة من النور .. أو لعل رأس الطالب ينير لما حوله ومن حوله ..

على سبيل المثال ، وأنا أنقل من كتاب «الكوان» أي كتاب «الألغاز» اليابانية :

الأستاذ : ما أجمل هذا الجبل !

الطالب : إنني أسألك عن الطريق .

الأستاذ : ما دمت لا تذهب إلى أبعد من هذا الجبل . فلن تعرف الطريق !

* * *

الأستاذ : هل رأيتك قبل اليوم ؟

الطالب : نعم !

ـ خذ لك كوباً من الشاي ..

ثم نظر الأستاذ إلى طالب آخر وسأله : وهل رأيتك قبل اليوم ؟

الطالب : لا .. لم ترني .

الأستاذ : إذن خذ لك كوباً من الشاي .

وسأله طالب ثالث : ولكن يا أستاذ أنت قدمت كوباً من الشاي للذي تعرفه ، وللذي لا تعرفه ، فكيف ذلك ؟

ـ إذن .. خذ لك كوباً من الشاي !

الأستاذ : لماذا لا تذهب إلى الفراش ؟

الطالب : الدنيا مظلمة !

ـ خذ هذه الشمعة .

وأخذها الطالب في يده . وبسرعة تقدم الأستاذ وأطفأ الشمعة !

* * *

قال الأستاذ : هل تستطيع أن تمسك الفراغ بيدك ؟

قال الطالب : نعم .

ثم مد يده وأمسك الهواء .

فقال الأستاذ : ليس كذلك .

ـ إذن كيف يا أستاذ ؟

وصفعه الأستاذ على وجهه قائلاً : هكذا !

* * *

جاء رجل وسأل الأستاذ : هل هناك جنة ونار بعد الموت ؟

فقال له الأستاذ : وأنت ماذا تعمل ؟

ـ أنا جندي في حرس الإمبراطور .

ـ ولكنك تبدو شحاذاً .

فغضب الجندي وأخرج السيف وضرب به عنق الأستاذ .. فقال الأستاذ : أنت الآن تدق أبواب النار !

* * *

وعشرات من الألغاز والفوازير توارثها المؤمنون بديانة «الزازن» . بعضها له دلالة عميقة ، وبعضها من الصعب أن تجد له معنى . ولكن المهم في هذه الديانة أن يشعر المؤمن بأنه أمام شيء هائل . وهذا الشيء يصعب على الإنسان أن يفهمه بمجرد أن تكون له رغبة . ولكن يجب أن يجعل هذه الرغبة عنيفة بحيث تعزله عن الدنيا وما فيها . فإذا أمكن ذلك ، واستمر وقتاً طويلاً ، استطاع الإنسان أن يصل إلى شيء . وهذا الشيء هو أن يرى ما لا يرى غيره ، ويسمع ما لم يسمع غيره ، فإذا استطاع ذلك أصبح «واصلاً» وأصبح مدركاً لحقيقة الكون . فما هي حقيقة الكون ؟

هذا الكون من أوله لآخره هو الله . فالله موجود في كل شيء . في أجمل الأشياء وأصغر الأشياء . فهو النهر . وهو الجبل . وهو الزهرة . وهو العصفور . فالله هو الكل . والكل هو الله . ولذلك يجب أن يشعر

الإنسان بأن كل شيء مقدس . وأنه هو أيضاً مقدس . فإذا نظرت إلى زهرة ، فأنت ترى الله ، وإذا وقفت أمام جبل ، فأنت في حضرة الله .. ولذلك فالمؤمنون بديانة «الزازن» يرون أن كل عمل مقدس : زراعة الأرض وصيد الأسماك وغسل الأطباق وكنس الشوارع . فكل مكان محراب . وكل أعمالنا طقوس دينية . ولهذا السبب يرى اليابانيون أن شرب الشاي مثلاً : له طقوس كالصلوات . وأن ما يتم أثناء شرب الشاي ، تماماً كالذي يتم أثناء الصلوات في المعابد .

ولكن هل لديانة الزازن إله ؟

ليس واضحاً هذا . هل لديانة الزازن أنبياء ؟ لا أنبياء . ولكن لها معلمون . والمعلمون ستة . بدأوا وانتهوا في القرن السابع الميلادي .

هل هذه الديانة تؤمن بأن الروح بعد أن يموت الإنسان تحل في جسم آخر ؟ لا تؤمن بذلك . هل هذه الديانة ترى أن الروح أفضل من الجسد ؟ لا ترى ذلك . ولكن ترى أن التحكم في الجسم هو أعظم مواهب الإنسان . بشرط أن يتم ذلك دون تعذيب ودون احتقار .

سؤال هام جداً : هل هذه الحياة تساوي ما نلاقيه فيها من عذاب ؟. هل تساوي أن يظل الإنسان طول عمره يشقى ليموت دون أن يعرف إلى أين أو من أين ؟ هل هذه الحياة تساوي هذه الحيرة التي يعانيها الأستاذ والطالب ؟

والجواب : الحياة لا تساوي .. الحياة تساوي !

كيف ؟

في ديانة الزازن نجد أن الإنسان مطالب بأن يعيش كريماً على نفسه وعلى غيره . وأن يختار أخف الطعام وأرخص الملابس . وأن يستخدم أقل الكلمات في التعامل مع الناس . فإذا وجد أن إشارة اليد أفضل

من الكلام فليفعل ذلك . وإذا وجد أن الصمت أبلغ من الإشارة فليسكت .

ولكن كيف يهتدي الإنسان العادي إلى دينه . كيف يستطيع الإنسان الذي لم يتعمق في الأديان أو في الفلسفة أن يكون مؤمناً حقاً ؟

إن ديانة الزازن ترى أن أحسن طريقة لفهم الدين هي طريقة الطيور في تعليم صغارها الطيران . إن العصفور يمسك صغيره ويضعه على غصن بعيد عن العش . ويظل الصغير يصرخ خائفاً . بينما أمه ترقبه باهتمام شديد . ومن هذا الشعور بالخوف والحرص على الحياة ، تتولد قدرته على الطيران .. وهي نفس الطريقة التي يستخدمها مدربو السباحة مع الذي يريد تعلم السباحة .. إنهم يلقونه في الماء ويتركون لغريزة حب البقاء أن تجعله طافياً على سطح الماء .. وكذلك رهبان الزازن يستدرجون المؤمنين إلى أعمق قضايا الفلسفة ثم يتركونهم يقاومون الغموض من أجل الوضوح .. فإذا اهتدوا إلى شيء من الوضوح كان ذلك هو الطريق إلى الإيمان الصحيح . لقد جاء شاب إلى السيد « دوجن » أحد أعلام الزازن وسأله : هل يمكن أن يصفق الإنسان بيد واحدة ؟ فقال الأستاذ : نعم هذا ممكن . وترك الشاب وحده واختفى الأستاذ .

وظل الشاب يحاول أن يصفق بيد واحدة كأن يدق الجدران . أو يصفع خده . ومضت ثلاث سنوات . ولكن الشاب لم يهتد إلى شيء .

وبعد ذلك لقيه الأستاذ وسأله : ماذا فعلت ؟

فقال الطالب : حاولت كثيراً .

وعاد الأستاذ يسأله : وهل نجحت ؟

فقال الطالب : لم أنجح ولكن ..

وعاد يقول : ولكن في لحظات التركيز المستمر استمعت إلى أصوات عذبة لم تصدر عني .. ولم تصدر عن شيء حولي .. سمعت أصواتاً ليس لها مصدر .. ورأيت أضواء ليس لها مصدر .. وشممت عطراً بلا زهور ..

ووقف الأستاذ يقول له : الآن .. استطعت أن تصفق بيد واحدة !

والمعنى الذي يريد الأستاذ أن يقوله : هو أن الإنسان إذا تأمل وأطال التأمل ، وإذا تجرد من هذه الدنيا وزهد فيها ، ولم يعد عبداً لها ، مربوطاً بحبال كثيرة اسمها : الماء والخبز والقبلات والشهوات والسلطة ، فإنه قادر على أن يدرك حقيقة هذا الكون .. أو حقيقة أن الله في كل شيء !

ومن عادة رهبان الزازن أن يرتدي كل واحد منهم مسوحاً معروفة . وأن يمسك في يده إناء يتسول به . فالراهب يجب ألا يكون مالكاً لشيء . وإنما عليه أن يسأل الناس . إذا أعطوه فشكراً لهم . وإذا لم يعطوه فشكراً له . والناس يستحقون الشكر لأنهم أعطوا . وهو يستحق الشكر لأنه طلب . فالطلب صلاة .. والعطاء صلاة . والناس كلهم أيد ممدودة تعطي وتأخذ مما أعطى الله !

وقد حدث أن جاء لص يسرق أحد الرهبان فسرق مسوحه الممزقة وسرق إناءه القديم . وجاء الراهب يبحث عن ثوبه ، وعن الإناء . فلم يجدهما . وخرج يبحث في الشوارع فوجد رجلاً عارياً . فقال له : أنت الذي سرقتني . فقال اللص : وأنت سرقت ملابسي . فقال الراهب : هات الثوب والإناء !. ونهض اللص يرد الثوب والإناء فلم يستطع أن يحركهما فقد كانا في وزن الجبال !.

وقال الراهب : إذا قلت لي عبارة واحدة لها معنى فسوف تجد

نفسك مكسواً بملابس جديدة . فقال اللص : أريد أن أموت !
وهنا قال الراهب : صدقت .. مثلك يجب أن يموت !
ويقال إن اللص مات وقد سقطت عليه أثواب جديدة . هذه الأثواب ألقى بها سرب من الطيور !
وخرافات أخرى كثيرة في ديانة الزازن ، والمؤمنون بهذه الديانة يفسرون هذه الخرافات تفسيراً رمزياً . فهم لا يؤمنون بالمعجزات ..
وجاء في كتاب « الكوان » ـ أي الألغاز أو المفارقات ـ أن طالباً أو مؤمناً عادياً سأل « المعلم السادس » قائلاً :
ـ يا معلم أنت رأيت بلاداً كثيرة .
ـ نعم .
ـ وأنا لم أر إلا هذا البلد .
ـ نعم .
ـ فلماذا لا أسافر إلى بلاد كثيرة ، لأعرف إن كانت هناك بلاد أفضل أو أجمل من بلادنا ؟
ـ نعم ..
ـ أو كانت هناك نساء أجمل من نسائنا . أو جبال أروع .. أو فاكهة أمتع أو طرق أفضل .. أو ديانات أعمق ؟
ـ نعم ديانات أعمق .
ـ ألست أنت الذي قلت إن الذي لا يرى إلا وجهه هو ، لم ير أحداً ؟
ـ قلت ذلك .
ـ ألست أنت الذي قلت إن الذي لا يرفع عينيه عن الأرض لا يعرف السماء ؟

ـ نعم قلت ذلك .
ـ ألست أنت الذي قلت إن الذي لا يسألني لن يسأله أحد ؟
ـ نعم قلت ذلك ..
ـ إذن هل ديننا هذا أحسن الأديان ؟
ـ هذا هو السؤال .
ـ فما هي الإجابة ؟
ـ أنت الذي تجيب ..

وتركه الأستاذ والأسئلة الكثيرة على شفتيه . فالأستاذ قد تركه في الوقت الذي كان يجب أن يبقى .. لقد تركه يسقط في الماء ليتعلم السباحة . تركه يهوي من فوق دون مظلة واقية . تركه في النار يحترق دون أن يعاونه أو يعده بشيء .. إما لأن الأستاذ نفسه لا يعرف ، وإما لأنه يعرف ويريد غيره أن يعرف .. ولكن الذين جاءوا بعد ذلك يدرسون ديانة «الزازن» لم يفهموا شيئاً كثيراً .

* * *

وديانة «الزازن» قد انبهر بها الأمريكان عندما احتلوا اليابان في الحرب العالمية الثانية . وترجموا كل كتبها القديمة . ودعوا إليها .

ولذلك وجدنا عدداً كبيراً من الأمريكان يؤمنون بهذه الديانة ، على سبيل المجاملة للمهزومين اليابانيين . أو على سبيل الملل من الحضارة الغربية . فهي ليست ديناً ، ولكنها «عينة صغيرة جديدة» من دين قديم .. أي من البوذية القديمة ..

أذكر عندما كنت في طوكيو أن دعيت إلى ندوة أو صلاة . ولا أعرف إن كانت الصلاة قد بدأت أو انتهت . فقد جلس الناس صامتين يتلفتون يميناً وشمالاً . ثم عادوا يتكلمون . ورؤوسهم إلى الأرض .

ودارت مناقشة عن الأديان الأخرى الكبرى . فكانت دهشة الناس هائلة عندما عرفوا مثلاً أن الإسلام قادر على أن يجيب عن كل سؤال في كل قصة إنسانية وأخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية وفلسفية . ومصدر هذه الدهشة أن ديانة «الزازن» تعتذر عن الإجابة عن ٩٠ ٪ من الأسئلة الضرورية لكي يؤمن الإنسان بأن هناك إلهاً ونبياً وكتاباً مقدساً وحياة وحساباً بعد الموت .. بل إنني سمعت شاباً مهندساً يقول : إن العلم الحديث يؤكد لي أن هناك عقلاً مطلعاً وراء كل شيء . فكيف يتجاهل الدين ذلك .. إنني أستطيع أن أخترع كل يوم ديناً جديداً . إذا كانت الأديان بهذه السهولة !

وأعود إلى كتاب «الكوان» فأجد أن طالباً ذهب إلى الأستاذ يسأله : إنني لا أجد ما يريحني في هذا الدين .

فما كان من الأستاذ إلا أن حرك المنشَّة التي في يده في الهواء ـ (المنشة ويسميها المجمع اللغوي : المذبة أي التي يذب بها الإنسان الذباب بعيداً عنه) . وعاد الطالب يسأله : ولا أجد أحداً يقول لي شيئاً .

وعاد الأستاذ يهز المنشة ..

وقال الطالب : إذن كيف تدعو إلى هذا الدين .. وكيف نقنع به أحداً . فالدين الذي لا يحرص على فلسفته وعلى الدعوة له ، وعلى تسليح الناس بحجج مقنعة ليس ديناً ..

وقام الأستاذ وهز المنشة مرة ثالثة ..

وعاد الطالب يقول : إذن كيف تدعو إلى دين ، ولا تهتم به .. وكيف تهتم بدين ولا تدافع عنه .. وكيف تدافع عنه بهذه المنشة ..

وألقى الأستاذ بالمنشة في وجه الطالب .

وأرى أن الطالب على حق .. وأن الدين الذي يجيب عن أسئلة الطالب ويريحه هو الدين الحقيقي . ولا أعتقد أن ديناً أُوتي من هذه القدرة على الإقناع والتنوير بالعقل وبالحجة مثل الإسلام ..

وليست هذه الأديان الغريبة المتنوعة إلا محاولة متجددة لبيان أن الإسلام أفضل وأبقى وأكثر إقناعاً !

عصفور لا تعرفه طيور الحديقة !

يقال إن الأديب الروسي تولستوي جمع أولاده الكثيرين في جلسة واحدة وقال : الآن لا أرى منكم أحداً . فأنتم جميعاً سواء ، لا أفضل واحداً على واحد !

فأغضب الجميع !..

هذه الديانة حاولت شيئاً من ذلك ، فهي ليست ديناً جديداً . وإنما هي حاولت أن تأخذ من كل دين شيئاً وبذلك أغضبت جميع الأديان !..

كان ذلك في إيران سنة ١٨٤٤ ، عندما قامت حركة إصلاح دينية وأخلاقية . هذه الحركة تزعمها رجل بسيط متواضع ، لا يدّعي أشياء كثيرة . وإنما هو فقط يحاول أن يرى المحبة بين الناس . هذا الرجل أطلق على نفسه اسم « الباب » . والتسمية قديمة وهي مأخوذة عن بعض تقاليد الشيعة المسلمين . وكان يعني من وراء هذه التسمية أنها : المدخل إلى شيء .. أو الطريقة .. أو السبيل .. وأنه هو الذي ينفتح على ضوء جديد إلى طريق جديد إلى إيمان هادئ هانئ . ولكن الحكومة الإيرانية انزعجت لهذه الحركة الجديدة . وألقت بالباب في السجن . ثم أعدمته سنة ١٨٥٠ . وتبعه مئات من « البابيين » ــ أتباعه ــ ألقت بهم الحكومة في ظلام السجون والقبور .

ولكن هذه الحركة لم تهدأ .

وإذا كان البابيون قد آمنوا بأن « الباب » هو رسولهم ، فإنهم بسرعة التفوا حول رجل آخر . هذا الرجل قد بشر به « الباب » . هذا الرجل هو ابن أحد الوزراء . واسمه ميرزا حسين علي . وأطلق هذا الرجل على نفسه اسم : بهاء الله . وحمل من جديد رسالة الباب ، وراح ينشرها بين الناس .

ولكن حدث سنة ١٨٥٢ أن أطلق طفل صغير الرصاص على شاه إيران وهنا ارتدت هذه الرصاصة الطائشة ألوف المرات إلى رؤوس البابيين ، وكان لا بد أن يدخل بهاء الله السجن .. ولكن وساطة أبيه والسفير الروسي قد أعطته فرصة الدفاع عن نفسه في المحكمة . وانتهز بهاء الله هذه الفرصة ليدعو للدين الجديد ، الذي اختار من كل دين زهرة وأقام حديقة متعددة الأزهار والورود .. ولكن شاه إيران أصدر قراره بطرد بهاء الله . واختار بهاء الله أن يقيم في بغداد . وسار وراءه ألوف من البابيين يعيشون على القليل من الطعام والشراب ، والكثير من البهاء وأقام في بغداد عشر سنوات . ولكنه اضطر مرة أخرى إلى أن يترك بغداد . وقبل أن يهاجر من بغداد خلا بنفسه في « جنة رضوان » ١٢ يوماً (٢١ أبريل حتى ٣ مايو سنة ١٨٦٣) ـ في مكان ما بالقرب من السلمانية .

وهذه الأيام تعتبر من أقدس أيام الديانة الجديدة . وبعدها قرر الهجرة إلى اسطنبول . ومنذ ذلك الحين ، أصبح أتباعه يطلقون على أنفسهم اسم : البهائيين .

وفي اسطنبول راح بهاء الله يبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الدين الجديد . ويطلب إليهم الرحمة والمحبة والمساواة بين الجميع .

وبعد أربع سنوات ، ضاقت به الحكومة التركية ، فبعثت به إلى فلسطين . وفي فلسطين أقام في عكا . أو أدخلوه قلعة عكا . ومن وراء أبواب القلعة ومن تحتها تسربت تعاليمه أيضاً . ولم يهدأ أكثر من ٢٤ عاماً . وكانت له نبوءات تحققت بعد ذلك بدقة ، رغم أنها قيلت وسجلت في أواخر القرن التاسع عشر ..

وهو في كل ما يدعو إليه ، يصدم الأديان والقوميات . فهو يريد أن يصفي حسابات الأديان السابقة ، ويريد أن يلغي القوميات أيضاً . فثارت عليه الطوائف الدينية والأحزاب السياسية في كل مكان . ولا بد أن مثل هذه العبارات تغضب الجميع : يجب ألا يفخر أحد بأنه يحب وطنه ، ولكن بأنه يحب الإنسانية كلها .

وإن مثل هذه العبارة يكفي أن تجيء في أي كتاب جميل عميق ، لكي تصدم عين القارئ ، وتصيبه في أعز عزيز لديه .

ولذلك اتهمت البهائية بتخريب الأديان والقوميات . وبأنها دعوة كافرة بكل دين ـ لأنها لا تسلم بدين واحد ـ ولأنها تحاول «أن تأخذ أحسن ما في الأديان والمبادئ المشتركة بينها جميعاً . وبذلك لا يشعر أي إنسان بأنه غريب بين هذه الأديان» .

.. ولذلك فالبهائية ديانة «توفيقية» و «تلفيقية» . وهي تحاول أن تصل ما بين الأديان بهدف واحد : هو أن يكون الناس على دين واحد . وأنه لا داعي للحروب والقتال والمفاضلات والحزازات والأحقاد التاريخية بين أتباع الأديان في كل مكان ..

ومهما كانت نية بهاء الله صادقة في ذلك ، فإنه يعتبر كافراً بكل الأديان ، مطروداً من رحمتها . وكذلك أتباعه أيضاً .

وتقول المؤرخة الأمريكية روزا جوتشالك في كتابها عن «البهائية»

إن هذا الدين أقرب إلى سجادة عجمية كبيرة . السجادة لها أشكال وألوان جميلة . ولكن الذي صنع هذه السجادة لم يشأ أن يجعلها من خيوط واحدة منسقة . وإنما فضل على ذلك أن يضع فيها خيوط بلاد كثيرة صحيح أن هذه البلاد قد اشتهرت بصناعة السجاد . ولكن صانع السجاد لم يفكر في ذلك مطلقاً ، وإنما فقط أن يقال إنه أخذ من كل شيء شيئاً . وأن الشيء الجديد الذي أتى به هو هذا الاختيار أو هذا الإنتقاء . ولذلك فالذين يفهمون في صناعة السجاد من التجار والهواة يرون أن السجادة أنيقة ولكنها ليست أصيلة وإنما على الأصح « سجادة لقيطة » .

وفي الأديان وفي السياسة أيضاً هذه القاعدة : من ليس منا فهو علينا .

ولذلك خرجت « البهائية » عن وعلى كل الأديان . وجاءت محاولات كثيرة من المجتهدين والشراح لإرضاء الجميع ولكن هذه المحاولات كانت محاولات فقط ، ولم تصل بهم إلى شيء . ولذلك انزوت البهائية كديانة من ديانات « وسط الطريق » أو « الحلول الوسطى » أو تحويل كل السوائل الملتهبة إلى سوائل « فاترة » .

وفي ديوان « كلهم ليسوا أولادي » للشاعر الأمريكي جنزبرج ، وهو أحد الأدباء الساخطين الصاخبين ، نجد قصيدة لشاب إيراني بهائي يقول :

كلمات بهاء الله في رأسي ، « إنها خريطة لكل الجبال والوديان والبحار إنني لا أعرف لغة أحد .. ولكن بسهولة نتفق . مثلاً : ما الذي يفعله أي إنسان في الصباح .

إنه يفتح عينيه ويمد يده إلى الطعام ويشكر السماء على أنها أعطته ،

أو على أنها سوف تعطيه .. كل الناس في كل مكان يقولون ذلك .
فما الذي اختلفنا عليه .. على حجم الغرفة .. على لون الفراش .. على شكل الرغيف وحجمه .. ولكني أعرف جيداً أين تبدأ رحلة الرغيف في جوف أي إنسان .. إننا جسم واحد .. وآلام واحدة .. وهذا بهاء الله لم يمت » .

وكان بهاء الله هذا رجلاً رقيقاً محباً للحياة والأطفال والموسيقى . وكان يعبد الله في زهرة .. أو في ورقة وردة ففيها كل عظمة الله وعظمة العطاء والبهاء . « وورقة في زهرة أعظم من غابة .. أروع من جبل .. أبهى من عرش .. من كل العروش » .

وفي قصيدة أخرى لشاعرة اسمها مرجريت نوري ويبدو أنها إيرانية الأصل تقول :

مثل ريش الطاووس ، كل الألوان من كل الأديان .. مثل قوس قزح .. كل الألوان جنباً إلى جنب .. إنها كل الألوان .. إنها هذا البهاء.

وفي يوم ٢٨ مايو سنة ١٨٩٢ توفي بهاء الله (٧٥ سنة) ..

ومن بعده جاء عباس أفندي (١٨٤٤–١٩٢١) الذي أطلق على نفسه : « عبد البهاء » ولا بد أن يكون عباس أفندي قد اختار هذه التسمية للدلالة على حالة الرق والعبودية والعذاب الذي يعانيه البهائيون . ولكنهم في نفس الوقت يرفضون أن يكونوا عبيداً إلا لبهاء الله .. وقد رأى عبد البهاء كل أنواع العذاب والهوان وهو يجري وراء بهاء الله من مكان إلى مكان .. وينقل هو أيضاً تعاليم البهائية ويحاول أن يقنع بها الآخرين .. وربما كان عبد البهاء أكثر وضوحاً من كل سابقيه من « الأنبياء » أو المصلحين أو المبشرين « الذين يظهرهم الله » كما يقولون عن أنفسهم الواحد بعد الآخر .

وعلى الرغم من أن البهائيين قليلو العدد في العالم كله ، إلا أنهم أيضاً مزقتهم الخلافات الصغيرة منذ اللحظة الأولى . ولكن بقي عدد آخر يحمل البهائية إلى أمريكا وأوروبا وآسيا . وأكبر مراكز الدعوة البهائية موجود في أمريكا في ولاية الينوي ، وفي مدينة حيفا بإسرائيل .

وإذا تساءلنا مثلاً ما الخلاف بين البهائية والإسلام . وجدنا عدة خلافات أولها : أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس خاتم النبيين . وإنما هو « الخاتم » الذي تزدان به إصبع من أصابع النبوة . ولذلك فالأنبياء يتوالون الواحد بعد الآخر : إبراهيم ويعقوب وموسى وبوذا وزرادشت وعيسى ومحمد بهاء الله وعبد البهاء .. وهكذا . وهذا خلاف جوهري مع الإسلام . وهناك طبعاً خلافات أخرى ، مع الإسلام ، ومع كل الديانات التي أخذت منها وعنها البهائية ..

وقد جاء عباس عبد البهاء إلى مصر والتقى به أديبنا الكبير عباس العقاد ودارت بينهما محاورات . ولكن العقاد لم تبهره الديانة البهائية . وإنما رأى فيها اجتهاداً ومحاولة لتنشيط الأديان كلها .

ويقول العقاد : إنه تناقش مع عباس أفندي عبد البهاء . وعندما نظر الاثنان إلى النخيل في الصحراء ، قال عبد البهاء : ما شاء الله حيث يوجد المطر يوجد الشجر . فقال العقاد : بل حيث يوجد الشجر يوجد المطر .

والمعنى الذي يقصده عباس عبد البهاء أن المطر هو الذي يؤدي إلى حياة الشجر ، ولكن العقاد قصد أنه حيث يكون الشجر ، فلا بد أن الله قد دبر له المطر ..

الإثنان يتفقان في معنى واحد : أن هناك حكمة وراء كل شيء . هي حكمة الله ..

وبعد وفاة عباس أفندي خلفه حفيده شوقي أفندي .. الذي ظل حارساً للبهائية .

والبهائية لها كتب كثيرة لها عناوين تدل على فلسفتها مثل : الأبقى والأيقن والأبهى . وفلسفتها هي أنها أحسن ما في كل الأديان وأنها أبهاها .

والبهائية تدعو إلى : أن العالم واحد . والإنسانية واحدة . والطريق إلى الصدق واحد . والحق واحد . وأن أسس الإيمان في كل الأديان واحدة والدين يجب أن يكون طريقاً إلى الوحدة الشاملة بين الناس . وليس أساساً للخلاف والفرقة بين الشعوب وأن الدين يجب أن يتفق مع العقل ومع العلم . وأن الرجال والنساء سواء . وما دامت لا خلافات فلا بغضاء وما دامت لا بغضاء فلا حروب . ولذلك يجب أن يكون السلام بين الناس . وأن يكون عالمياً . ومن أجل السلام يجب أن يفعل الناس كل ما يقدرون عليه .

وهذه الديانة ليست لها طقوس وليس لها كهنة ولا رهبان ولا قساوسة وإنما يكفي أن يعرف واحد منهم تعاليم دينه ليشرحه للآخرين . ويتألف البهائيون من جماعات صغيرة . هذه الجماعات يساعد بعضها البعض بنسب معروفة . ولها مجالس صغيرة اسمها مجالس العدل للفصل بين خلافاتهم ودون أن يرجعوا إلى القضاء أو إلى الدولة .

ثم أعود إلى قصيدة مرجريت نوري تقول : « كل عصفورة تحط على غصن .. إلا عصفورتي لأنها تفضل أن ترى الأشجار وأن تغرق نفسها في بهاء النور .. وأن تموت في الضياء .. كل عصفورة تعود إلى عشها .. إلا عصفورتي التي جاءت من طهران .. من كل عاصمة أخرى .. إلى كل عاصمة أخرى .. إنها تبيض وتفرخ على

أعواد من النور .. في عش من البهاء .. إنها لا تموت .. ولن تموت » ؟

.. ولكن المشكلة أنها ليست « عصفورة » واحدة . فالبهائية ليست عصفورة واحدة .. وإنما هي سرب من العصافير معاً .. أو هي ريش الطاووس وريش الغراب وريش الصقر والعصفور في طائر واحد .. حتى أصبحت طائراً غريباً عن كل الطيور في الحديقة !

لا سجاير لا خمر لا وطنية لا تحية لأي علم

عندما لا يجد الإنسان تفسيراً لشيء يراه يقول : لا بد أنه عفريت ..
وعندما يجد بعض المعنى لهذا الذي يراه يقول : إنه كلام فارغ ..
وعندما يجد كل المعنى لهذا الذي يراه يقول : هذا هو التفسير الوحيد ..

في استطاعتك أن تقول إن هذا كله نوع من الغرور الإنساني . ولكن أين يوجد إنسان بلا غرور . أو أين يوجد غرور ليس وراء إنسان .. فوراء كل عظيم غرور عظيم أيضاً .. مثلاً : كان القطار متجهاً إلى الشمال . وفي إحدى العربات جلس رجل كبير في السن ينظر من النافذة وشفتاه تتحركان بكلام غير مسموع فاقترب منه رجل آخر وقال له : لا بد أنك تعاني من مشكلة عائلية هل أقول لك إن زوجتك خانتك أو أنك أنت خنتها مع أخريات ..

وسكت الرجل وقال : هل أصبت الحقيقة ؟

ويبدو أنه أصابها من أول رصاصة فقد مال الرجل إلى جانب من المقعد ثم تدحرج على الأرض ميتاً !

وكان يظن أن حياته سر دفين ، وأن أفكاره مدرعة لا ينفذ إليها عدو أو متطفل !

أما هذا الميت ، فهو الراعي تشارلز تيز رسل (١٨٥٢–١٩١٦)

وكان في طريقه إلى إلقاء محاضرة رقم ١٨٥٢ يبشر بالديانة الجديدة .. وكان على خلاف شديد مع زوجته . فاتهمته الزوجة بالخيانة ، رغم أنه من رجال الدين . فقد وافق على الطلاق منها رغم أنه يحرم الطلاق على الناس . ولكن الصحف فضحته . وخاف على ديانته الجديدة . واختار أهون الخطيئتين . فطلقها . واستدرج الصحف إلى المحاكم فحكمت له حتى جاء سائل القطار هذا . فكان الموت على يديه .

هذا الراعي رسل من أسرة دينية درس التوراة دراسة واعية وتعمق فيها . وقرر بعد دراسة مستوعبة ، أن المسيحية قد أخطأت في فهم الكتاب المقدس ، وخاصة الكاثوليك . وأن اليهودية قد حرفت في التوراة . وأنه سوف يصحح الأوضاع ، ويختار أصح المعاني وأضبط الطرق للمؤمنين به . ولما سئل عن دينه ، قال : متابعة الكتاب المقدس والتحقق من كل شيء فيه .

ووجد في الكتاب المقدس كلمة « شهيد » بمعنى « شاهد » . والشاهد على الحق ، أي الدليل الناصع عليه .. والشهيد هو الذي مات من أجل الحق وفي سبيله .. فهو شاهد وشهيد .

والتوراة تقول : « كان شهيدي الأمين » (الرؤيا ٣ : ٤) . «وتكونون لي شهوداً في أورشليم» _ (أعمال الرسل ١ : ٨) .. » و« أنتم شهودي يقول الرب أنا الله » _ (أشعياء ٤٣ : ١٠ و١٢) .. » .

ويقول الراعي رسل إن كلمة شهيد معناها شاهد . فالشاهد والشهيد واحد . وأول الشهود والشهداء هو قابيل ومن بعده أخنوخ ونوح وإبراهيم وموسى وأرميا ويوحنا المعمدان .. أما المسيح « فهو الشاهد المخلص الأمين » وكل هؤلاء وغيرهم شهداء وشهود على عظمة الله وعلى الحقيقة التي كانت وسوف تجيء بصورة خفية .

وقد اختار الراعي رسل لجماعته أسماء كثيرة من بينها : المتابعون للكتاب المقدس .. والمفسرون لكلام الله .. والمراقبون للدين الصحيح .. والمنتظرون لمجيء المسيح .

وقد نشر كتباً صغيرة . أهمها كتاب « موضوع وطريقة المجيء الثاني للسيد المسيح » . وأصدر مجلة « برج المراقبة » في يوليو سنة ١٨٧٩ وصدر له كتاب « طعام للمفكرين المسيحيين » . واتخذت هذه الجمعية اسماً جديداً هو : جماعة برج مراقبة التوراة . وأصبح لها أتباع كثيرون في أمريكا وفي أوروبا . وكان الراعي رسل هذا لا يكف عن الدعوة لها . وقيل عنه لو وقف وحده لراح يدعو للجمعية .. وقيل لو رأى صورته في المرآة لخلع منظاره ليرى شخصاً آخر في المرآة ويدعوه . وكان في غاية الحيوية والقوة وبسبب قدراته الخارقة تكاثر المؤمنون والكافرون أيضاً . واختلف مع رجال الدين ووقف أمام القضاء يدافع عن حرية العقيدة والدعوة لها ما دام لا يمس أحداً بسوء . واشتبك مع اليهود أيضاً وأغضب المسيحيين .

وهو أول من تنبأ بأن سنة ١٩١٤ هي نهاية العالم . وقال إن هذه نبوءة قد وجدها في الكتاب المقدس . وقد تنبأ بها المسيح في سفر مرقس (الإصحاح ١٣ والآيات ٣ ـ ٣٧) . وكذلك في سفر متى (الإصحاح ٢٤ ـ الآيات ١٠ وما بعدها) . ففي ذلك العام سوف يقتل الأخ أخاه وأباه ، وسوف يهرب اليهود إلى الجبال . وسوف تشتعل النيران ويحل الدمار في كل مكان .. سوف تضيع الدنيا كلها . ولن يبقى على وجه الأرض إلا هذه الجماعة . والموتى يدخلون الجحيم . والمؤمنون يدخلون النعيم . والجحيم هو القبر والموت . فلا توجد جهنم ، وإنما توجد الجنة فقط . ويقول أيضاً : إن المسيح هو أول مخلوقات

الله . وليس إلهاً . بل إن المسيح نفسه قال : لأن أبي أعظم مني (سفر يوحنا الإصحاح ١٤ : الآية ٢٨) وأن الثالوث المقدس لم يرد في سفر يوحنا وإنما أضيف إليه بعد ذلك !!

وفي إحدى محاكم أمريكا وقف الراعي رسل يجادل أحد الكاثوليك . قال القس الكاثوليكي : أريد أن أسمع منك هل أنت نبي ؟ فأجاب : لا .. قال القس الكاثوليكي : إذن كيف تقول إن الجنة لأتباعك والجحيم لكل الناس ؟ وقال الراعي رسل : إنها للمؤمنين بالتوراة الصحيحة وتفسيرها المخلص ونحن هذا الصنف من الناس .. أما أنتم فقد جعلتم الله بشراً والبشر إلهاً . إنها لعبة كنسية للسخرية من عقول الناس وللثراء الفاحش على حساب الطيبين .

واشتبك الرجلان ورفعت الجلسة . وحفظت القضية للمرة الرابعة والعشرين !

وبعد وفاة الراعي رسل جاء القاضي رذرفورد (١٨٦٩ - ١٩٤٢) واتجه بهذه الجمعية اتجاهاً ثورياً عنيفاً . وجعل اسمها « شهود يهوه » .. ويهوه هو أحد أسماء الله عند اليهود والذي تردد بهذا المعنى ٦٨٢٣ مرة . وبدأت أعمال العنف ضد « شهود يهوه » في كل الدنيا . فقد اتهموا بالخيانة والتجسس والتخريب في كل مكان . وطردوا وعذبوا وكانوا يقولون إن طردهم قد تنبأ به المسيح (سفر « لوقا » الإصحاح ٢٣ والآية ٣) وفي سفر (أعمال الرسل : الإصحاح ١٧ والآية ٦ والإصحاح ٢٤ : الآية ١ ـ ٥) . بل إن هتلر قد أعدم منهم في معسكرات الاعتقال سبعة آلاف من اليهود والمسيحيين . وطردتهم النمسا واستراليا وبريطانيا التي هي مركزهم الرئيسي الآن ..

وقد صورهم الأديب الإنجليزي كولن ويلسون في رواية « طقوس

الظلام » . وبين لنا حركاتهم السرية وكيف أنهم ينتقلون من بيت إلى بيت في خوف وخفاء .. وكذلك يعملون في كل بلد .

أذكر أنني لقيت واحداً منهم في القاهرة . ولم أكن قد سمعت بهم بوضوح . وقال إنه مكلف بمتابعتهم ومسايرتهم تمهيداً لاعتقالهم . وبعد أيام اعتقلتهم السلطات وأدخلتهم السجون . وكانوا من المصريين والأرمن واليونانيين واللبنانيين واليهود والمسيحيين . وكانت دعوتهم ضد الثورة المصرية وضد الموقف العدائي من إسرائيل .

وأصبحت حياتهم في أمريكا صعبة جداً . فقد كانوا يتعرضون كل يوم لمظاهرات الناس . وكانوا يتلقون الطوب والظلط والبيض والطماطم طعاماً يومياً . ولم تكن السلطات الأمريكية تحميهم . وإنما كانت تقودهم إلى المحاكم ليخسروا قضاياهم يوماً بعد يوم .

وقد حدث في سنة ١٩٣٤ أن ذهبت فتاة تشكو أن أحد رعاة « شهود يهوه » قد اعتدى عليها . وسألها القاضي . وكيف ؟ قالت الفتاة : لقد طلب مني أن أعمل في أحد مصانع الزيوت التي يملكونها . وكنت في حاجة إلى عمل . ووافقت وسألتني أمي : هل هم يهود ؟ فقلت لا .. هل هم وثنيون ؟.. فقلت : لا .. وسألتها الأم : إذن ماذا ؟.. فقلت لها : لا دين عندهم .. وقد عرفت واحدة منهم تقول إنها زوجة لستة منهم . وهي لا تريد أن تنجب لأنها لا تعرف من يكون أباً لوليدها !

وقالت الفتاة : وسقطت أمي على الأرض من هول ما سمعت .

وعاد يسألها القاضي : وأنت ماذا فعلت ؟..

قالت الفتاة : ذهبت إلى القاضي رذرفورد وسألته أن يبصرني بهذا الدين الجديد .. ولكنه لم يشأ أن يقول شيئاً . وأشار إلى أحد الأتباع أن

يفعل ذلك ، وقلت لا بد أنه مشغول أو لا بد أنني لا أحتاج إلى رجل في مثل مقامه .. إنما يستطيع هدايتي من هو أقل علماً منه .. وجاء أحد المؤمنين به ، ودعاني إلى بيته . وشربنا ورقصنا وأكلنا ، وتعانقنا . ولم يحدثني عن شيء في الدين . ولما سألته عن ذلك . قال اليوم قبلات وغداً صلوات .. وفي الغد لم أجد إلا مزيداً من القبلات . ونجوت من رغبته في الإعتداء عليّ ، عندما استنجدت بأحد رجال الشرطة !.. (كتاب اعترافات فتاة مغامرة بلا فائدة ـ للآنسة ايثيل بلانكتون) .

ولا شك أن كل التهم التي وجهت إلى «شهود يهوه» لها أساس من الصحة . فهم ليسوا مسيحيين وليسوا يهوداً . وهم في نفس الوقت لا يؤمنون بالوطنية ولا القومية . فكل إنسان يجب ألا يكون وطنياً وأن يخجل من وطنيته . لأن الوطنية ضيق أفق . لأنه كيف يتعصب الإنسان إلى أناس لا يعرفهم وأرض لا يملكها وتاريخ لم يشارك فيه ؟.. ثم ما دام هذا رأي الإنسان فكيف يدافع عن وطنه ؟.. وكيف يكون جندياً وهو جندي من جنود الله ؟.. إذن يجب ألا يرتدي ملابس الجنود وألا يحارب دفاعاً عن العرض وعن الأرض ؟ ولذلك فكل من رفع يده بالتحية لعلم أو لقائد أو لملك فهو وثني . «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما ، مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن» ـ سفر «الخروج» (الإصحاح ٢٠ الآيات : ٤ و ٥) . ولذلك دخل «شهود يهوه» كل سجون أمريكا وأوروبا لأنهم مغررون بالشباب ويدعونهم إلى الإنسحاب من الجيوش . وإذا أرغموا على دخول الجيش فمن الواجب المقدس أن يثيروا الشك والفزع بين الجنود . ولهم ثواب عظيم !

فكل واحد من « شهود يهوه » يحمل علماً من نوع آخر ، في جيش من نوع آخر ، وفي حرب من نوع آخر : إنها حرب المعركة الفاصلة بين الخير والشر إنها معركة «أرمجدو » الجديدة ضد أعداء الله . ولذلك فهو لا يمكن أن يكون جندياً في جيشين وعابداً لإلٰهين ومحارباً في معركتين . وهذا هو أيضاً رأي كل الدول . إن جيشها هو الجيش ، وإن حربها هي الحرب . لذلك لا بد أن يكون المواطن محارباً معها لا عليها ، ولها وليس ضدها . ولذلك أدخلوا السجون وحوكموا بتهمة الخيانة والكفر ، ودخل الرجال والنساء يرفعون أعلاماً لا شكل لها .. ولونها أبيض ، ولكنها رغم ذلك أعلام .

وأصدر القاضي رذرفورد كتاباً طبع منه عشرين مليون نسخة يطالب فيه بالتصفية النهائية لكل شرور البشرية فلا سجائر ولا خمور .

وبهذا الكتاب وقع في حرب عنيفة مع الشركات الغنية جداً لتجارة الدخان في أمريكا . واستطاعت هذه الشركات أن تقضي على كل مشاريعه التجارية .

لقد كانت له مصانع فحم وطوب وزيوت ، واستطاعت شركات السجائر بحيلها الذكية أن تقفل أبواب هذه المصانع الواحد بعد الآخر ..

وفي إحدى المحاكمات استدرجه القاضي إلى أن يكتب الحروف الأبجدية اليونانية . ولكنه لم يستطع . وكانت فضيحة دينية كبرى ، فمن النادر ألا يعرف رجل الدين الأبجدية اليونانية واللاتينية والعبرية والقبطية والسريانية والآرامية .

وأدخل رذرفورد السجن لفترة طويلة .

وقد اعتمد «شهود يهوه» على الأساليب العلمية المدنية في إقناع الناس . استخدموا السينما وأشرطة التسجيل . واستطاعت إحدى الشركات أن تستدرج عدداً من «شهود يهوه» لتخريب هذه الجماعة . فحينما عرضت «شهود يهوه» أحد أفلامها الدعائية في ولاية كاليفورنيا ، فوجئ الناس بفيلم جنسي عريان تماماً وأن هذه «الأعمال الجنسية الشائنة» قد تمت كلها تحت الصليب . وأن المسيح نفسه قد تحرك على صليبه مباركاً ما يرى من دعارات ـ كما تقول الآنسة ايثيل بلانكتون في كتابها عن «شهود يهوه» . وظهر فيلم آخر في شيكاغو عن تربية الأغنام وكان معنى الفيلم «أن الأنبياء جميعاً كانوا رعاة للأغنام . وأن رعي الأغنام تدريب سماوي لهم على الصبر والتواضع وقيادة القطيع النافر في وجه ذئاب الطريق» . ولكن لم تمض دقائق من الفيلم ، حتى اكتشف المتفرجون أن هذه الأغنام ليست إلا شباناً وشابات قد لبسوا فراء الخراف وخلعوا الفراء وارتجفوا على أنغام موسيقى رقصة جديدة اسمها : «الحمل والذئب» وكانت الفتاة هي التي تقوم بدور الذئب ، أما الفتى فهو الحمل الوديع الذي ينظر إلى السماء لعلها أن تبعث له من يخلصه من الرذيلة !

وجمع «شهود يهوه» كل الأفلام المعروضة في أمريكا ، ولم يطق القاضي رذرفورد هذه الفضيحة فمات هو أيضاً بينما كان في سيارته . ومن الغريب أنه هو الذي كان يقودها . فوقف بها في قلب الميدان . وراحت السيارات تصرخ وراءه . وكانت هذه الجنازة الوحيدة التي أقيمت له . وأصبحت وفاته معروفة عند كل الناس . وقالوا إنه هو الذي أراد ذلك ، وأنه هو الذي خطط إلى هذه الوفاة في أوسع مكان .

ولم تسكت الهيئات الدينية على وفاته . فقد نشرت الصحف

الكاثوليكية خبر وفاته في شماتة مقدسة ، عندما نشرت آيات من سفري «متى» و «مرقص» تقول : إنه سوف يجيء أنبياء كذبة مضللون .. وهذا هو آخرهم إن شاء الله !

أيها الأحياء اتركوا لي هذا الضوء الخافت!

بدأ رحلة الحكمة ومعرفة أسرار الكون بزيارة مدينة دمشق وفي دمشق قابل عدداً من «العلماء السريين» . وقد أطلعه علماء دمشق على سر تحول المعادن بعضها إلى بعض ثم إلى ذهب .. وجاء إلى القاهرة وزار أسوان . ولقي في الأزهر عدداً من «العلماء السريين» . ولكن رجلاً في الفيوم أمسكه من كتفيه وقال له : كل ما علمتك اذهب وانشره . واجعل الناس يدقون الباب . لا تدق باب أحد . فالجاهل يجب أن يبحث عن العالم . والعالم يجب أن يزحف إلى الحكيم ، والحكيم يجب أن يقول للجميع ما تعلمه .

وعاد إلى ألمانيا . وفي ألمانيا اتخذ له كهفاً . وفي الكهف التقى بثلاثة من المؤمنين به . وقال لهم انتشروا في الأرض . وليمت كل واحد في بلد . ولا خوف على واحد منكم : فلن يعرف الجوع ولا العطش ولا المرض . إن الله قد أعطانا المناعة ضد كل آلام البشرية . ثم جاء إليه ثمانية آخرون . وعاش هذا الرجل في كهفه ١٠٦ سنوات فتوفي سنة ١٤٨٤ .

ولم تعرف حياة هذا الرجل إلا في سنة ١٦١٣ عندما ظهر كتاب عنوانه باللاتينية يقول : «محاورات شخصية مع جماعة الصليب

الوردي » . هذا الرجل الألماني اسمه كريستيان روزنكرويس . وفي هذه المحاورات يروي رحلاته في الدنيا بحثاً عن الحكمة . وكلمة «روزنكرويس» ألمانية ومعناها «الصليب الوردي» . ويقال إن هذه الجماعة الدينية قد نسبت إلى هذا الرجل ويقال إن هذا الرجل لا وجود له . ويقال بل عاش ومات في الوقت الذي حدده . قال : سيموت في الشهر والسنة التي مات فيها . وقال أيضاً ينصح تلامذته : يجب أن تظل هذه المغارة سراً لا يعرفها أحد إلا بعد «ست عشرينات من السنين» ـ أي مائة وعشرين عاماً .

وعندما عثروا على التابوت الذي دفن فيه وجدوا لوحة نحاسية تقول : أيها الأحياء اتركوا لي هذا الضوء الخافت !

ومن الغريب أنهم وجدوا في الكهف شمعة مضاءة . ووجدوا عدداً من المصابيح والمرايا وأشياء أخرى لا يمكن معرفتها ..

ويقال أيضاً إن كريستيان روزنكرويس هذا كان شخصية باهرة . وكان اعتقاده خليطاً من المسيحية واليهودية وديانة اخناتون وبعض الحكم الإسلامية . وكان هذا الدين يطلب من المؤمن به أن يكون بسيطاً زاهداً في الدنيا ، وأن الزهد هو الطريق إلى الاعتماد على النفس ، وليس على الطعام والشراب ، وليس على الآخرين . لأن الذي يأكل أكثر يجوع أكثر . والذي يأكل أقل ، يشعر بالجوع أقل . وتصبح احتياجاته في الحياة ومن الحياة ضئيلة لا تستعبده ولا تحني ظهره لغني أو لحاكم . وكان يطلب إلى الناس أن يعالجوا المرضى مجاناً . وأن يؤمنوا بأن الشفاء أكيد .

ولم يعرف أحد في فرنسا أو ألمانيا من هو رئيس هذه الجمعية أو من هم أعضاؤها ـ وقد اعتادوا أن يزوروا الهرم الأكبر في الجيزة كل

سنة . وأن يصلوا في غرفة الملك ــ أي الغرفة التي يقال إن الملك خوفو قد دفن فيها ــ وإن كان أحد من العلماء المعاصرين لا يوافق على ذلك . ويقومون بطقوس الصليب الوردي سراً دون أن يراهم أحد ..

وقد اندهش سكان باريس في نهاية القرن الثامن عشر لإعلان ملصق على أحد الجدران يقول : « نحن جماعة الصليب الوردي . أنت لا تعرفنا . ولن تستطيع . نحن ندعوك إلينا . لا إلى زيارتنا ولكن السير وراءنا . وليس لنا مقر . ولا طريق . ولا مركز . لن تعرفنا ولكننا سوف نعرفك . وفي الوقت المناسب سنلتقي بك ونحملك الأمانة ، وهي سرية وسوف تتأكد من أن الذي نعرفه كثير . وأن العقل السامي قد خصنا بذلك ، لأسباب سوف نشرحها لك . فلا تشغل بالك إلا بأن تكون قويماً مستقيماً راغباً عن كل شيء يذل كرامتك ، ويحني رأسك وظهرك . أنت أعظم من هذا ، وأعظم من أن تتصور . ولكنك لا تعرف ذلك » .

وقيل بعد ذلك إن المؤسس الحقيقي لهذه الجماعة الدينية ليس « روزنكرويس » ولكنه الطبيب السويسري الذي أطلق على نفسه اسم باراسيلسوس واسمه الحقيقي فون هوهنهايم (١٤٩٣ – ١٥٤١) وكان هذا الرجل لا يؤمن بالطب الذي جاء في كتب جالينوس والرئيس ابن سينا . وإنما يرى أن الإنسان يجب أن يتعلم من الطبيعة . وأن يعالج الإنسان بما أنبتته الأرض . فالله الذي خلق الداء خلق الدواء . وليس على الطبيب إلا أن يسأل المريض وأن يسرف في السؤال . فلا يمكن أن يكون جالينوس قد عرف كل داء ، ولا ابن سينا عرف كل دواء . فهناك الكثير جداً لا يعرفونه . ويجب أن نعرفه نحن . ولذلك لم يسترح إليه المرضى ولا الأطباء فهاجر من سويسرا إلى بلاد كثيرة .

ويقال إن رحلات هذا الطبيب هي التي ظهرت سنة ١٦١٣ ونسبت إلى روزنكرويس . ولكن ليس بعيداً أن تكون من مؤلفات الطبيب السويسري ويقال من مؤلفات رجل إنجليزي آخر .

ولكن لا يزال كريستيان روزنكرويس هو صاحب الكلمات الفاصلة والمضيئة لهذا الدين الجديد . ففي المغارة التي وجدوا فيها تابوته عثروا على لوحات من النحاس مكتوب عليها :

١ ـ لا شيء فارغ من أي شيء .
٢ ـ لا أحد يستعبده القانون .
٣ ـ من الضروري تحرير الدين من كثير من الغموض والخرافات .
٤ ـ المجد لله وحده !

والمؤسسون لهذه الجماعة الدينية عددهم ثمانية ورقم ثمانية له سحر قديم . فهو رقم كوكب الزهرة ذات الشعاعات الثمانية . ولا تزال النظرية الكونية الفلكية التي تقول إن الإنسان قد هبط من كوكب الزهرة نظـرية واسعة الإنتشار إلى أن تظهر نظرية أخرى تلقي بها من فوق !

ومن اهتمامات روزنكرويس التي أورثها أتباعه والمؤمنين أنهم قادرون على تحويل المعادن إلى ذهب وأنهم استطاعوا ذلك . ولكن لأنهم زاهدون في هذه الدنيا فهم لا يسرفون في اقتناء الذهب . ولذلك لا يوجد واحد من أتباع « الصليب الوردي » له عمل أو وظيفة أو مهنة . لماذا ؟ لأنه يملك الذهب ولا يستغله ..

ويرى روزنكرويس أن أتباعه قادرون على أن يروا ويسمعوا ويشموا عن بعد — بسبب شفافيتهم وقدراتهم الخارقة على التركيز — وهم أيضاً قادرون على استخدام الأرقام في معرفة أسرار الكون . ومن الضروري

أن يلتقوا مرة كل سنة ، ليطلعوا بعضهم على الجديد الذي حصلوه في هذا الكون . ولكي يختاروا زعيماً للجماعة ويقسموا على الوردة والصليب أن يحفظوا السر حتى الموت . وقد وفوا جميعاً بهذا الوعد !

وجاء أيضاً في كتاب الطبيب روبرت فلود (١٥٧٤ – ١٦٣٧) أحد أعمدة « الصليب الوردي » أن هذه الديانة قديمة جداً . وأنها ترجع إلى سليمان والمسيح وأفلاطون وفيلون السكندري اليهودي وأفلوطين المصري الصعيدي وإلى « جماعة الأطهار » الذين كان يتردد عليهم المسيح ـ كما جاء في « مخطوطات البحر الميت » . ويقال أيضاً إلى أخناتون ، الذي كان يعرف من أسرار الكون الكثير ولكنه أوصى كهنته ، وأوصى هو أيضاً ، بألا يقول شيئاً . فلم يحن الوقت بعد !

ومن آراء جماعة « الصليب الوردي » أن هناك دورة طولها ١٠٨ سنوات . ينشط فيها الدين ويخمل . ولكن أحداً لم يشأ أن يكشف لنا سر هذه الدورة ولماذا هي بهذا العدد وليس بعدد آخر . ولكن استطاع أئمة هذا الدين أن يسجلوا التاريخ في كل عصوره ويقسموه إلى دورات بهذا الطول . وهم يعتقدون أننا الآن في الدورة النشطة حتى ١٩٨٥ وبعد ذلك ندخل في مرحلة « النوم » أو « البيات الشتوي » لهذا الدين القديم .. وإن كانت دورة هذا الدين قد بدأت نشاطها في أمريكا سنة ١٩١٥ وستدخل في مرحلة الخمول سنة ٢٠٢٣ .

وقد اجتذبت هذه الديانة عدداً كبيراً من العظماء ـ انضموا إليها أو تسللوا ليعرفوا حقيقتها . فاثنان من الفلاسفة العظام حاولا ذلك . الفيلسوف الألماني لينبتس والفيلسوف الفرنسي بيكارت . وكذلك الإمبراطور غليوم الثاني (فريدريش فيلهلم الثاني) ونابليون بونابرت .

بل إن نابليون قد التقى في القاهرة بعدد من «العلماء السريين» . وتحدث إليهم طويلاً وأطلعوه على مستقبل حياته . بل إن واحداً منهم هو الذي حذر نابليون من القائد الإنجليزي نلسون . ولذلك هرب من القاهرة عائداً إلى فرنسا . ولم يستطع أحد أن يهتدي إلى سفنه !

وفي القرن الثامن عشر استطاع الوزير الألماني فون فيلنر (١٧٣٢ - ١٨٠٠) أن ينشر هذه الديانة بصورة عجيبة . فقد خرج على تعاليم الدين . وراح يلتقي بالناس ويعرض عليهم بعض الأسرار التي عرفها . وآمن به الناس . وقالوا : نصاب .. أفاق .. وقالوا : ساحر .. نبي !

ولكن الوزير مضى في إقناع الناس باللقاء والدواء والشفاء . فمن الحيل التي لجأ إليها أمام أكثر من ألف رجل وامرأة . أنه طلب منهم أن ينظروا إلى السماء .. وأطالوا النظر . ولكنهم لم يروا شيئاً . واستطاع أن يصرخ فيهم أن يواصلوا النظر إلى السماء . وبدأ الناس يقلقون ويضيقون به . ولكنه وقف أمام الناس وقد علق الصلبان والورود وهو يقول : إذا كفرتم فليس جديداً . فالإنسان كافر بما لا يعرف . متمرد على ما لا يفهم . والإنسان مغرور يتصور أنه يعرف كل سر وكل رمز .. تماماً كأنه إله ، أو كأنه الله .. ولكن الآن .. فقط . أدعوكم إلى أن تجلسوا بعض الوقت !

وحين حاول الناس أن يجلسوا وجدوا تحتهم ألف مقعد .. وصرخ الناس . وقال لهم : انهضوا حتى أكمل كلامي !

ووقف الناس بسرعة . ووقف الوزير صامتاً ليقول : ليس عندي ما أقوله . ولم يجد الناس لا المقاعد ولا الوزير !

وظهر رجال كثيرون كلهم من المشتغلين بالعلوم والطب . أهمهم الطبيب أرنست توتنهام (١٩٢٤ - .....) . وقد أصدر كتاباً بعنوان

«الطريق إلى الصفر» . يقول في المقدمة : «أيها القارئ أنت لست أمام دين جديد . ولكنه دين . وليس لهذا الدين أنبياء ولا كتاب مقدس . ولا كعبة ولا حائط مبكى ولا تمثال . ولكن في أي مكان تستطيع أن تضع الوردة على رأسك والصليب على صدرك . وفي هذه اللحظة تكون قد اتخذت لنفسك معبداً ولك أن تتجه إلى أية وجهة . فالذي تبحث عنه في كل مكان وفي كل اتجاه» .

ويقول أيضاً : «إن الكون مليء بالأسرار والألغاز . بعضها سوف ينفتح وينفض وينكشف عندما تلمسه بأصابعك . ولكنك لا تعرف ذلك . سليمان فعل ذلك . عيسى فعل ذلك . وأسرار أخرى لا تبلغها إلا إذا روضت جسمك وروحك على أن تكون أخف من جسمك .. أخف من همومك .. وتستطيع ذلك . أنا استطعت وألوف آخرون . لا تقل إن زوجتك هي السبب ، اتركها فوراً . ولا أولادك اتركهم أيضاً . لا أحد يشغلك عن الحقيقة . قد فعل من قبلك رهبان الكنائس وكهنة الأهرامات . وأطباء ومرضى وقواد . إنك فرد في جيش كبير لا يحمل سلاحاً على أحد . ولكن على الجهل والغرور والطمع والأنانية والسلطة والقسوة والظلم » .

والطبيب توتنهام نفسه قد طلق زوجته بعد أسبوع من الزفاف . وعندما أعطته زوجته ولداً أعادها إليه وبعد أن بلغ الولد عاماً طلق أمه وترك لها الولد . وتزوج لثاني وثالث وسابع مرة . وشكاه الناس . واتهموه بتعدد الزوجات . وكانت حجته أنه ليس مسيحياً ولا يهودياً . وأنه هو الذي يضع قانون دينه والمؤمنين به . ولم يقنع أحداً . ولكن أتباعه يفعلون ذلك سراً .

ويقال إن كريستيان روزنكرويس قد تزوج ثلاثاً . وواحدة من

دمشق وواحدة من القاهرة وواحدة من فاس . وطلب من كل واحدة أن تكتب بخط يدها : أنها قررت أن تنفصل عنه لأسباب دينية !

ولم يشأ أن يترك أحداً يخمن لماذا تركن راهب المغارة ، أهي الفلوس أهو الهجر الطويل .. أو هو ضيق المغارة أو هو الزهد في الجسد .. ولذلك ظل الزواج من ثلاث والطلاق منهن أيضاً لغزاً . ويقال إن زوجاته الثلاث ذهبن يبشرن بالدين الجديد . وفي وثيقة نشرت حديثاً كشف أحد رجال « الصليب الوردي » أن ثلاثتهن قتلن قبل أن يعدن إلى بلادهن ـ ولا بد أن أحداً من أتباعه هو القاتل ..

وهذه الجماعة الدينية لها أتباع في أماكن كثيرة . وهم يحجون كل سنة إلى هرم خوفو .. أو إلى مكان ما بدمشق ، ومكان ما بفاس .. هذه هي الأماكن المقدسة الثلاثة . وفي كل عام يذهبون من بلاد مختلفة إلى أداء الحج والمباركة والتعميد والقسم على الولاء للدين وكتمان كل أسراره ، وإخفاء أسماء الأعضاء والزعيم الروحي لهم . وإذا أباح واحد منهم بذلك لم يعد عضواً . ومهما استغفر فلا عفو عنه !

وجماعة « الصليب الوردي » يؤمنون بأن بين سكان الأرض أناساً أو كائنات أعظم عقلاً « هبطوا من السماء من كوكب الزهرة » . وأن أحداً لا يستطيع أن يراهم إلا إذا كان من جماعة الصليب الوردي . وهذه الكائنات الأعقل موجودة على كل المستويات وهي وحدها التي تعمل على تطوير سكان الأرض بحساب شديد . ولولاهم لهلكت الأرض بما ومن عليها . فهم الذين يمسكون الأرض حتى لا يبتلعها المحيط ، ويشهدون جاذبيتها إلى الشمس حتى لا تطوح في الفضاء كتلة من الذرات المشتعلة !

مَن قَالَ إنّكَ تعَطِف عَلىَ الآخَرين ؟

هذا الطفل اليتيم كان في السابعة من عمره . اقتربت منه سيدة عجوز . وقالت : ما الذي يبكيك ؟

فقال : الناس .

ـ ماذا فعلوا بك ؟

ـ لا شيء ..

ـ ما الذي فعلته بهم ؟

ـ لا شيء ..

ـ إذن لِمَ لا تكف عن البكاء ؟

ـ رأيت الله فقال إنني مجنون ..

ـ آه .. عرفت يا ولدي ، لست وحدك المجنون يا ولدي . كلنا كذلك .. فهذا مجنون مال ، وذاك مجنون شهرة .. ومجنون جنس .. ومجنون حقد .. وأنت مجنون بالله !..

وبعد ذلك رأى الطفل ربه كثيراً في النوم . لم يكن يعرف بالضبط ما هذا الذي رآه .. كان يصرخ قائلاً : نور .. سماء .. محيطات .. دخان .. سحاب .. برق .. رعد ..

ثم يسقط على الأرض غارقاً في عرق بارد ، فاقداً للنطق . ويظل

هكذا حتى يجيء أحد ويلمه ويلقيه إلى جوار الحائط . وعندما يفيق من غيبوبته يجد نفسه في حضن أمه تحت أكداس من الأغطية الممزقة . فهو فقير ابن فقير ابن فقير «جذوري في الفقر ضاربة حتى آدم الذي هبط من السماء عارياً تماماً . ولا أزال أحتفظ بذكراه الخالدة على جسدي .. فأنا عريان تماماً إلا من غطاء الإيمان بأن الفقر حرية . والجوع حرية . والعطش حرية . فأنت لا تحتاج إلى أحد ، أو إلى شيء من أحد» .

هذا الطفل العبقري الهندي هو راما كريشنا الذي ولد في كلكتا سنة ١٨٣٦ .. أما أسرته فهي لا تهم ـ لا دين أبيه ولا فقر أمه . ولا وفاة الجميع بعد ذلك ـ لأنه مختلف تماماً منذ البداية . فقد درس كما يدرسون . ولكنه لم يضيع وقته في الدراسة . وإنما وجد نفسه هارباً من الجدران الأربعة : البيت والمعبد . وأقام على جانب من أي شارع ، وعلى مسافة من أي بيت . ويقول «مسافة ذراع واحدة .. امدد يدك وتسول طعامك .. على مسافة ذراع واحدة . امدد يدك وصافح الناس .. هذه المسافة تكفي لأن يكون بينك وبين الناس سلام» .

وعندما بلغ الثالثة والعشرين من العمر ، زوجوه إحدى قريباته ، وكانت فتاة في الخامسة ـ نعم الخامسة كما قرأتها .

هو هندوكي ما في ذلك شك . ولكنه أراد أن يجعل الدين أوسع من الهند . وأن يجعل المؤمنين ملايين آخرين غير الهنود . ولذلك كان يقول عن نفسه إنني أؤمن بأصول الأصول ، أي أنه لا يؤمن بالديانة الهندوكية ويقدس الجبال والأنهار والحيوانات والأجداد ، ولكنه يؤمن بأن العقول والقلوب كلها تتجه إلى قوة واحدة . هذه القوة وراء

كل شيء وكل إنسان ، وكل دين .

وقد اتخذ كتاب « الفيدا » دليلاً وهادياً . واتخذ هذه العبارة خيطاً ذهبياً في نسيج ثوبه الديني : الوجود .. الوعي .. النعمة .. الله هو الوجود والوعي والنعمة . فمن عرفه ، عرف كل شيء . ومن تجاهله ، جهل كل شيء . ومن الخيوط البارزة في ثوبه الديني أيضاً : أن كل شيء ظاهر ، هو شيء فان .. كل ما تراه يفنى ، كل ما تسمعه يزول ، كل ما تلمسه يتلاشى .. وأنت أيضاً ـ إلا الله !

وكان راما كريشنا يدعو المؤمن إلى التنقل من بلد إلى بلد . يدعو إلى الزهد في الحياة ، وإلى تجاهل الفوارق بين الناس : اللون والطبقة والدين والجنس .

وهذه الديانة التي دعا إليها سميت فيما بعد باسم « حركة راما كريشنا » وانتشرت في أوروبا وأمريكا .. وإن كان هو لم يجعل لها إسماً . وإنما كان يقول : ورائي ما دمت نافعاً .. ورائي ما دمت محباً للسلام .. ورائي ما دمت لا أرى ورائي أو أمامي !

وكانت أمام راما كريشنا بلاده العظيمة العريقة : الهند . وقد تمزقت ألوف الألوان والأشكال واللغات والطوائف والكراهية والحروب والدماء .. ملايين الناس تربطهم الكراهية ويجمعهم الفقر ضد كل ما هو خير وسلام للهند .

ومن الطبيعي أن يظهر في الهند من ينكر هذا الهوان القومي ، وينكر الاستعمار البريطاني للهند . ومن يدعو الشعب إلى أن يسمو على كل شيء ، وأن يتسامى بتاريخه ومقدساته . وإلى أن يشعر أنه عظيم ، ولكن الحقيقة أعظم ، وإلى أن الشعب إذا بقي فإن الله أبقى . وإلى أن الثراء قوة ، ولكن الزهد أقوى ، وإلى أن العائلة والقبيلة والعصبية

آمن ، ولكن الفرد وحده أقدر من الجميع ..

وقد درس راما كريشنا الإسلام . وارتدى ملابس المسلمين . وقال إن الإسلام حق . ودرس الديانة المسيحية ورأى المسيح في نومه . ورأى العذراء وابنها على صدرها . ورأى نفسه على صدور أمهات سماويات . وتلفت إلى كل معالم القداسة في كل دين . وعرفها . وأدار قلبه إلى كل وجهة . ورفع رأسه عالياً ليقول : إن الله حق . وكل شيء ما عداه باطل باطل ..

ومن أسس «حركة راما كريشنا» :

١ ـ أن الله وحده حق .

٢ ـ إذا أردنا أن نؤمن بالله ، فيجب أن يعيش الإنسان من أجل هذا الهدف .

٣ ـ الله واحد . ولكن الله له ألف اسم ، وله ألف رسم . فالله ألوانه وأشكاله متعددة لا نهاية لها . ولكن الله نفسه ليس إسماً ولا رسماً ولا شكلاً ولا حجماً .

٤ ـ اختر لنفسك أي إسم .. واختر من صور الله وأشكاله وألوانه ، أي صورة وأي شكل وأي لون .. واعبد الله . فهو في كل شيء .

٥ ـ لم يخطئ أحد من الذين قبلي ، ولم يخطئ أحد من الطيبين من بعدي ، فهم جميعاً قد اختاروا هدفاً واحداً ، ولكن لهم عشرات السبل .

٦ ـ الأديان كلها منسجمة . ولكننا لا نرى ذلك ـ أو لا نريد أن نرى ذلك .

٧ ـ الله يظهر في كل شيء . أو كل شيء هو مظهر من مظاهر الله .. السماء ثوبه .. الأرض ثوبه .. هو هذه الأشياء وهو وراءها

وأنت يجب أن ترى الله في كل شيء ..

وفي يوم قال واحد من تلامذته : أريد أن أعطف على كافر بديننا فهل هذا يجوز ؟

فصرخ راما كريشنا قائلاً : من الذي يستطيع أن يعطف على أحد ؟ أنت لا تعطف على أحد .. أنت تعطي ما أعطاك الله لله .. أي تعطيه لصورة من صور الله .. أنت تعطي الله ما أعطاك الله .. فهو صورة لله وأنت أيضاً .. أنتما صورتان وما سوف تعطيه صورة ثالثة .. فالله . الله . الله !

وقامت في الهند قبله وبعده ديانات أو حركات دينية تأخذ من بعضها البعض . وكان راما كريشنا يكره ذلك . ويقول : إنني أفضل الوردة على باقة الورد . فالوردة لها جذور لها أصول . ولكن باقة الورد ليست لها أصول . ولا جذور . إنها مجموعة من أشياء اقتلعت من أشجارها وأرضها ، ولم تعد قادرة على الحياة .. إن شجرة ورد واحدة خير من ألف وردة في باقة ورد .. وكان يقول : إن حبة قمح تنبت شجرة .. ولكن حفنة من الدقيق لا تنبت قمحاً .. إن البيضة يخرج منها الكتكوت ولكن «العجة» لا تخرج الكتكوت . ولذلك يرى أن دينه الجديد هو دين الأصول ، دين شجرة الورد الواحدة وبذرة القمح وبيضة الدجاجة !

وسار وراءه الملايين في الهند وفي غيرها . ولكن ديانة راما كريشنا لا تريح الناس . لأن الناس يريدون أن يكونوا أقل فلسفة وأكثر حياة . يريدون أن يمشوا وراء رجل له قدرات إنسانية خارقة ، وهو في نفس الوقت إنسان بسيط يجوع ويتعذب ويتألم .. إنسان يستطيع ما يستطيعون ولكنه ليس أقوى من كل الناس .

يريدون سبيلاً واضحاً سهلاً إلى معبد . إلى رجل يسألونه أن يقول لهم . وأن يجدوه دائماً . يريدون أن يجدوا كتاباً يعودون إليه ، كلما ضربتهم الحياة وأوجعهم الناس . وألجأهم الفقر إلى الكفر ، ورماهم الكفر على الجريمة . ولكنهم لا يجدون ذلك في «حركة راما كريشنا» . ورغم هذه الفلسفة الهندية الرائعة فإن راما كريشنا ما يزال هندوكياً وثنياً .

ويبدو أنه لم يشأ أن يعلو على كل العقول فتهرب منه . فظل قريباً من الأرض ليرى الناس ويروه !

وكان راما كريشنا صاحب مجاهدات روحية عميقة . وصاحب غيبوبة باهرة . كثيراً ما كان يغيب عن الوعي أياماً مفتوح العينين ، يرى ما لا يراه أحد . ويسمع ما لا يسمعه أحد ، وفي نفس الوقت في غاية السعادة والأمان . وكثيراً ما جاء تلامذته وأيقظوه ليأكل أو ليشرب .

ويصف راما كريشنا كيف أحس بالنعيم والرحمة والجلال في لحظة واحدة . يقول : في تلك الليلة أحسست كأن قلبي فوطة مبللة وأن هنالك يداً قوية لا حدود لقوتها تعصرها عصراً . ومنذ ذلك الحين وأنا لم أعد أطيق البعد عن هذه القوة الخفية . أقدم لها نفسي وجسمي كل ليلة لتأخذني وتعصرني وأجد حياتي في فنائي بين أصابعها .. وفي مرة قررت الإنتحار لأنني أريد أن أذهب إلى ما وراء كل شيء ، إلى ما وراء الوراء ، وذهبت إلى المعبد ووجدت سيفاً ، وأخذت السيف ورفعته فوق عنقي ، ولكن يدي تجمدت في مكانها فوق رأسي . ورفعت رأسي لأرى : أمواجاً من النور في كل مكان .. سحابات من البهجة في كل مكان .. طوفاناً من النعمة في كل مكان .. حاولت

أن أتنفس ولكنني نسيت كيف كنت أتنفس وبأي شيء أتنفس ، ولم أعرف حتى معنى التنفس ، ولا وجدت ضرورة له . سقطت على الأرض لا أشعر بشيء حولي .. أي شيء .

سأله أتباعه : وكيف أعطيت هذه الموهبة يا معلمنا ؟

وكان رد راما كريشنا : سألت رجلاً حكيماً يوماً ما .. فأمسك قطعة من الزجاج وضربني بين حاجبي وقال لي : ركز تفكيرك هنا !

وأسرع واحد من تلامذته وفعل ذلك بسرعة . ولكن راما كريشنا قال له : ولكن يجب أن تركز تفكيرك حتى تنسى أين تركزه ، وحتى تنسى من الذي نصحك بذلك !

وسأله واحد من أتباعه : لماذا نختلف معاً يا معلمنا ؟ فأجاب راما كريشنا : نحن لم نختلف ولكننا نبدو كذلك .. إننا جميعاً نقف على شاطئ بحيرة واسعة .. كل واحد يملأ إناءه منها . بعضنا يضع الإناء بالقرب من الشاطئ .. وبعضنا يضعه بعيداً عن الشاطئ .. بعضنا يملأ الإناء وبعضنا لا يملأ الإناء .. وبعضنا له إناء شفاف .. والبعض الآخر له إناء ليس شفافاً .. ويكبر الإناء ويصغر .. وترتعش به الأيدي .. أو يكون أثقل من الأيدي .. الماء واحد .. والبحيرة واحدة .. ولكن الناس لا يرون بوضوح .. أو لا يحبون أن يفعلوا ذلك !

وسأله واحد من تلامذته أيضاً : لكن لماذا لا نرى ما ترى يا معلمنا ؟

فقال : ما دامت هناك السحب فالشمس لا تدفئ أحداً .. ولكن إذا ذهبت السحب ، جاء النور .. فإذا ذهبت أوهامك الإنسانية أضاءت نفسك .. إذا راح عنك الطمع والخوف والكراهية والغرور

والأنانية .. فهذا هو اليوم الصافي .. أو العمر الصافي ..

وسأله آخر : كيف نكسب الناس يا معلمي .. إن القليلين ينضمون إلينا .؟

فأجاب راما كريشنا : إن القليلين ينضمون إلينا .. لأننا لا نعد الناس بشيء .. لا بطعام ولا شراب ولا كساء ولا سلطة .. ولو عرفنا الناس لجاءوا إلينا وساروا وراءنا في طابور المتسولين الذين يطلبون من الناس ما زاد عنهم من الطعام القليل .. ولكن بهذه القناعة وبهذا التواضع لله ، سوف نكسب في النهاية .. إن «الإنسان المليء» هو الذي يتواضع ونحن كذلك . قد امتلأنا بالحب والرحمة والقناعة والسلام .. إننا مثل شجرة كبرت ثمارها فتدلت أغصانها وتواضعت !

وكان راما كريشنا يقول لأتباعه : لو أخطأ أي إنسان ، فقد أخطأ ، ولكن لو أخطأت أنا ، لكانت خطيئتي رهيبة .. لكانت مصيبتي فادحة ، وكانت فضيحتي تاريخية .. ما هي الخطايا التي لم يرتكبها خادم الأمير ؟ كل الخطايا ، ولكن الأمير إذا أخطأ ، فغلطة الأمير هي أيضاً أميرة بين الخطايا .. تماماً كالبقعة السوداء في الثوب الأبيض .. إنها بارزة صارخة .. ولكن البقعة السوداء في الثوب الأسود من يراها ؟ فنحن أثواب بيضاء ونريدها بلا بقع ولا خطايا !

ولم تكن حياة راما كريشنا سهلة ، كانت في غاية القسوة ، جسمياً ونفسياً . ولم يستطع جسمه الهزيل ـ طبعاً ـ الضعيف ـ فعلاً ـ أن يتحمل هذه التجارب العنيفة وهذه «الانفلاتات» ـ كما يقول ـ من قيود الجسم والناس والأرض واحتياجات الحياة ، ولذلك مات في الخمسين من عمره . وقبل أن يموت بلحظات تلفت يسأل تلامذته إن كان قد نسي أن يوصي بشيء .. أو كان قد نسي أحداً !

ولم يشأ أحد أن يرفع رأسه . ولكنه بسرعة نظر إلى وجوههم فقال :
آه .. نسيت .. ولكن بعد أن أصبحت لا شيء !

لقد نسي أنه تزوج منذ ٢٧ عاماً !

وخرجت زوجته من بين الصفوف ، ليموت على صدرها وتعيش من بعده مقدسة عذراء ٣٧ عاماً !

النَاس لا يَموتون وإنَّما يَنتَقِلونَ الى صُورَةٍ أُخرى!

كان المسيح عليه السلام يشفي المرضى بإذن‌الله . ولكن المسيح لم يذكر لأحد من بعده كيف كان يفعل ذلك . وقد حاول حواريوه والقديسون أن يفعلوا مثله ، بعضهم نجح ، ولكن كيف ؟

حاولت الإجابة عن هذا السؤال سيدة مريضة . إذا وقفت وقعت . وإذا نامت التوت . وإذا جلست انحنت . ولذلك لم تذهب إلى مدرسة وإنما قرأت في فراشها ، مثل كثير من الممتازين في الفن والأدب . وكانت معلوماتها قليلة ، ولكنها عميقة . وقد عاونها واحد من إخوتها الستة وبعد ذلك اعتمدت على نفسها في الفهم وإقناع الآخرين . وكان لا بد من الآخرين ، لأنها صاحبة دعوة أو رسالة وكان لا بد من إقناعهم ليصبح لها في خمسة وأربعين عاماً مليون تابع وعشرة آلاف كنيسة ، وصحيفة هي من أكثر الصحف احتراماً في أمريكا وفي العالم .

هذه السيدة اسمها ماري إيدي (١٨٢١ — ١٩١٠) عاشت ٨٩ عاماً . تزوجت لأول مرة ومات زوجها قبل أن يرى ابنهما الأول . وبعد ذلك لم تر الأم ابنها هذا فقد شغلها مرضها عن تربيته ، فعاش الطفل بعيداً ، حتى لم يعد يعرفها إذا لقيها مرة كل شهر ، ثم مرة كل سنة .

وتزوجت للمرة الثانية طبيب أسنان . وانفصلت عنه ثلاث سنوات للقراءة والبحث . وأخيراً تزوجت واحداً من أتباعها .

وكانت هذه السيدة ماري إيدي تشكو من وجع في عمودها الفقري . وقيل لها لا علاج . وعرضها زوجها الثاني على منوم مغناطيسي اسمه كويمي (١٨٠٢ – ١٨٦٦) من مواليد لبنان . وعالجها هذا الرجل . وبعد موته عاودتها الآلام من جديد . فقررت أن تجد سر شفاء المسيح للمرضى . ووجدت سر الشفاء في الكتاب المقدس وفي إنجيل متى بصفة خاصة . واستطاعت أن تشفي نفسها بالقراءة والتأمل . فالعلاج لكل الأمراض الحسية هو علاج روحي ، والعلاج الروحي اسمه العقل . والإيمان بقدرته على أن يشفي من كل داء . والعقل يقوم بتصحيح الأفكار الخاطئة ، أو الإحساسات الغلط المترسبة فينا . فإذا أفلحنا في تصحيح الفكر وترتيبه ، اختفى المرض . لأن المرض مثل الخطيئة . هو مخالفة للقوانين المقدسة .

والسيدة ماري إيدي لا ترى أن هناك خطيئة موروثة يجب أن نكفر عنها مدى الحياة . وهي خطيئة آدم عليه السلام ، التي انتقلت إلينا في الدم وبقيت في الضمير ، وعلينا الخلاص منها بالصلاة والعمل الصالح إلى آخر ما تقوله الديانة المسيحية .

ولكن السيدة ماري لها آراء مختلفة في كل تعاليم الديانة المسيحية . وهي ترى أنه بالعقل يمكن فهم كل شيء . وبالعلم أيضاً . ولذلك أطلقت على رسالتها اسم « العلم المسيحي » بكسر العين . وأنه لا دين بلا عقل . ولا عقل بلا أسس علمية .

وأول ما أعلنته السيدة ماري في كتابها « العلم والصحة ، مفتاح الكتب المقدسة » الذي صدر سنة ١٨٧٩ أن الكتب المقدسة يجب أن يقرأها

الإنسان بعقله . وأن يقبل منها ما هو معقول ، وأن يرفض ما ليس علمياً . مثلاً : أن المادة لا وجود لها . وأن كل الذي نراه هو مظاهر الأشياء . فالإنسان مثلاً له وجهان : عقلي ومادي أو معنوي وملموس وأننا من الداخل معنويون ، وأننا من الخارج محسوسون . وأن هذين الوجهين لشيء واحد هو الإنسان .

واستحقت من كثير من الرجال أن يسخروا منها وأن يقولوا إنها مجنونة ولم تكن مجنونة وإنما كانت شديدة الحساسية لدرجة هستيرية .

ولكن جاء علماء عظام من بعدها . وقالوا شيئاً مماثلاً . فالعالم الكبير جيمس جينز قد أعلن : أن الكون كله لم يعد شيئاً مادياً ، وإنما هو أقرب ما يكون إلى الفكر . وأنه فكرة عن شيء ، أو أنه فكرتنا عن الذي حولنا . وليس مادة !

وجاء عالم عظيم آخر اسمه أدنجتون يقول : إن الكون شيء وهمي . فالمادة وهم . ولا علاقة لهذا الكون كله بفكرتنا عنه .

وعالم ثالث عظيم اسمه رابير يقول : المادة تتلاشى أو تلاشت . والذي أمامنا وحولنا ليس إلا حالة عقلية !

واستطاعت السيدة ماري أن تشفي مئات من المصابين بأمراض مستعصية . وذلك بالقراءة والتركيز . والإيمان المطلق بأن العلاج ممكن . وأن سبيل العلاج هو الإيمان . فقد فعل المسيح ذلك .

ولذلك ترى السيدة ماري إيدي أنها اكتشفت هذا العلاج وأنها مؤسسة وزعيمة «العلم المسيحي» والعلاج الروحي ، وقد التف حولها وسار وراءها مئات الألوف . واستطاعت في جلساتها أن تخفف ويلاتهم ، وتبدد أوجاعهم بقراءة الكتاب المقدس . وتقول : إنني

ـ حقيقة ـ لم أكتشف الحقيقة .. كما أنني لم أبحث عنها ، أنا وجدتها فقط . فهي هناك دائماً .

وتكاثرت التساؤلات والاستنكارات : مثل هل هي مسيحية ؟ تقول : إنها كذلك . ولكن إذا كانت تنكر المادة فهل تؤمن بالمسيح الذي هو إله وإنسان معاً ؟

وهي تقول : مائة في المائة مسيحية ولكن المسيحيين ، كل المسيحيين يرون أنها كافرة لأنها أنكرت المسيح الإنسان .

وتقول هي : إن الله الذي أؤمن به هو ما جاء تعريفه في قاموس وبستر . فالقاموس يقول : الله وجود واحد مطلق ، خلق نفسه بنفسه أبدياً .

ولكن هذا يجعلها تخرج على المسيحية تماماً .

وسألوها إن كانت ترى أن هناك موتاً ؟

وجوابها : لا يوجد موت . إنما يوجد انتقال الحي إلى حياة أخرى .. وإلى شكل آخر لا يراه الذين بكوا الميت ثم دفنوه بعد ذلك .

وسألوها : إن كانت تؤمن بالجنة والنار ؟

وكان جوابها : نعم .

ولكن تفسيرها يختلف عن المألوف . فهي ترى أن الجنة هي حالة عقلية . والنار كذلك . فالذي يصنع الخير يجد الراحة النفسية وهذه هي الجنة والذي يفعل الشر ويندم عليه أو حتى لم يندم عليه ، وإنما يخاف عاقبته ويخاف من الناس ومن القانون ، فهذه هي النار . حالة عقلية أيضاً .

والمرض كذلك حالة عقلية ..

ولم يمض وقت طويل حتى جاء الأطباء وعلماء النفس يؤكدون أن

الأصل في العلاج هو هذه الحالة النفسية أو العقلية . فلا يوجد جسم إنساني مثل الحجر أو الخشب . يعالجه الأطباء كما يعالج النجار لوحاً خشبياً أو حجراً أو قطعة من الطين . هناك النفس ، هناك العقل . والعلاج يجب أن يبدأ من النفس إلى المظاهر الأخرى للجسم الإنساني والوظائف الجسمية للجسم .

وفي ذلك الوقت أعلنت السيدة ماري إيدي : أنه قد جاء وقت المفكرين .. وذهب عصر الماديين الذين يقلبون في لحم الإنسان وعظامه . فالعلاج هو أن تفكر في الله وفي حكمته .. وأنت تفكر سوف تهتدي إلى علاج النفس أو علاج الروح أو علاج أعقد المتاعب الإنسانية . حاول . فقد حاولت قبلك ألوف المرات . ووفقني الله إليه .

وفرحت السيدة ماري إيدي بأنها قد شفيت تماماً ، فراحت تطوف البلاد الأمريكية وتلقي محاضرات طويلة واقفة على رجليها . وفي إحدى الندوات وقف لها رجل ضخم الجثة . وطلبت إليه أن يجلس . فجلس . وسألها : هل في نيتك أن تعلني أنك المسيح الجديد ؟ هل أنت الظهور الثاني للمسيح ؟ هل أتباعك سيقدسونك ؟ هل أنت تطلبين من كل الناس أن يقرأوا الكتب المقدسة بعد كتابك ؟

وأجابت السيدة ماري : أنا أطلب إلى الناس أن يقرأوا كتبي . ولكني لست مسيحاً ولا مقدسة . ولا أطلب من أحد ذلك . إنني وجدت الحقيقة وأريد أن أنفع بها الناس . وعليكم أن تجدوها أنتم أيضاً .

وسألها الرجل : ولكني سمعتك تقولين إن العلم هو الله .

ـ نعم هو الله !

ـ فما تعريفك للجهل !

ـ هو المرض . ولا يزال الإنسان يتعلم ويعلم حتى يشفى من أكثر الأمراض قسوة على النفس .

ـ والجسم ؟

ـ لا جسم .. نفس فقط !

ـ ولو أطلق أحد عليك الرصاص الآن فأين تذهبين ؟

ـ وأين تذهب ورقة أحرقتها ؟ وأين يذهب ضوء مصباح أطفأته ؟ وأين تذهب الشمس عند الغروب .. نحن لا نموت .. وإنما نحن نغرب لنشرق على عوالم جديدة .. أو لتشرق علينا عوالم جديدة .. وأنا لن أموت .. وإنما فقط أذهب إلى حيث تذهب نار الرصاصة .. إلى صورة أخرى لا يراها المجرم المدسوس علينا من طوائف دينية أخرى تريد أن تشكك الناس فيما أقول !

ونهض الرجل وخرج ولم يعد !

وبعد ذلك مباشرة أعلنت عن انفصالها عن الكنيسة . وأقامت لها ولأتباعها كنائس خاصة حتى تحتفظ بصفاء دينها الجديد . وكانت أول كنيسة أقامتها اسمها « الكنيسة الأم » وبعد ذلك أنشأت كنائس أخرى اسمها « يسوع المسيح العالِم » ـ بكسر اللام ـ وألحقت بالكنائس مدارس وفصولاً للقراءة والدرس والتأمل . وجعلت لأتباعها ترانيم دينية وصلوات خاصة . وبذلك قطعت آخر صلة تربطها بكل الكنائس .

وقبل وفاتها بسنوات قليلة أنشأت دوراً للنشر ، وأصدرت مجلات أسبوعية . ولكن أعظم ما أنشأت صحيفة يومية اسمها «كريستان ساينس مونيتور » أي « رقيب أو مراقب العلم المسيحي » وهي من أكثر الصحف الأمريكية احتراماً .

وبعد وفاتها اختلف العلماء في أمرها . أناس يقولون : مجتهدة . وقد تأثرت بالمنوم المغناطيسي كويمي !.

وأنكرت هي قبل موتها أن تكون قد تأثرت بهذا الرجل لأن لهما أسلوبين مختلفين في فهم وعلاج المتاعب الإنسانية .

وقالوا : كافرة ما في ذلك شك ، لأن دينها ليس المسيحية . ولا مذهبها البروتستانتية الذي تنتسب إليه .

وقالوا : ساحرة .

ولكنها لم تكن كذلك . فقد أعلنت بوضوح في كتبها أنها عثرت على كنوز لا تقدر بثمن في الكتب المقدسة . واهتدت إلى أسرار الكلمات والأرقام . وفي استطاعة كل إنسان أن يكون مثلها قدرة وإيماناً ، لو أراد وأصرّ على هذه الإرادة بصفاء نفس ونقاء عقل ..

وربما كانت السيدة ماري إيدي هي أول من استخدم هذا التعبير : انعدام الوزن .

وهي اختارت هذا التعبير لتصف الإنسان الذي أصبح خالياً من الخطيئة .. أو الإنسان الذي تاب فأصبح خيراً ، بعد أن كان شريراً .. أو لتصف حالة الموت .. أو النزع الأخير .. فهي تقول : شاهدت أناساً يموتون .. وجدت اختناقهم الشديد .. ثم وجدت الراحة والصفاء على الوجه بعد ذلك لماذا ؟ لأن الإنسان يعاني ما تعانيه الأم عند الولادة . فالأم تتعذب لأن كائناً سوف يخرج منها .. وهي في حاجة إلى قوة هائلة لتلفظه إلى الخارج . فإذا فعلت استراحت .. وبعد ذلك شعرت بالسعادة التي توصف بأنها ألم ولذة ، أقصى درجات اللذة والألم معاً . وكذلك الميت : فهو يلد كائناً آخر .. وهذه الولادة عسرة .. والفرق بين الحالتين أن المولود يشغل مكاناً في بطن الأم ... أما في حالة الموت ،

فهناك كائن يشغل كل خلية من خلايا الجسم .. فهو يولد من كل خلية ويخرج منها .. منتهى العذاب .. وبعده الراحة .. فقد انطلقت الروح ـ أو الوجود الجديد ـ من سجن الإنسان .. وأصبح بلا وزن .. أو في حالة انعدام الوزن !

لعلها أول من استخدم هذا التعبير استعمالاً فلسفياً . حتى أصبح هذا التعبير من أمهات فالعلم المسيحي» ولذلك استحقت السيدة ماري إيدي أن توصف بأنها معجزة علمية أو صاحبة أعمق وأروع رؤية دينية في عصر العلم . فالعلم عندها هو الإيمان . لأن العلم هو معرفة القوانين المقدسة ، أي الله الذي هو واحد وخير وصدق ورحمة ونعمة .

وقبل وفاتها ـ أو انتقالها ـ بساعات ، سئلت : ما هو بالضبط الذي أضفته إلى الديانة المسيحية ، أو اختلفت بن عن الديانة المسيحية ؟

وغابت السيدة ماري وعادت ووجهها أكثر إشراقاً ، إشراقته الأخيرة .. وقالت : المسيحية جعلت الله على شكل الإنسان .. فهم جعلوا الإنسان يمشي ويأكل ويشرب ثم يعذبه اليهود ويصلبونه .. أما أنا فقد جعلت الإنسان على شكل الله : معنى روحياً !

تمثَال إذا وَضَعوُه في الظَلام أضَاء

لما سئل جورج فوكس (١٦٢١ - ١٦٩١) :

ـ وهل أنت مسيحي ؟

ـ مختلف .

ـ مسيحي مختلف أو مختلف فقط ؟

ـ مختلف جداً .

ـ كيف ؟ هل تصلي ؟

ـ أصلي صامتاً .

ـ بلا كلام .

ـ نعم .

ـ والناس أيضاً ؟

ـ يجب أن يفعلوا ذلك .

ـ لا داعي للمعابد ؟

ـ لا داعي .

ـ وكيف يتعلم الناس ؟

ـ إنهم لا يتعلمون .. إنهم يتذكرون ما في داخلهم في صمت . ولذلك يجب ألا يتعلم أحد .. ولا يعلم أحد أحداً .

ـ والكتب المقدسة ؟
ـ الناس يقرأونها في صمت .
ـ آه .. فهمت . إذن الكتب المقدسة ما تزال مقدسة عندك . ولكن الخلاف بينك وبين الديانات الأخرى هو أنك وأتباعك يقلبونها في صمت .. ويقلبون عيونهم في صمت .. ومن هذا الصمت كله يخرج النور .. وهل تكون الصلاة جامعة ؟ أي هل تصلون معاً ؟
ـ معاً وليس معاً .. فنحن نصلي في وقت واحد .. ولكن أحداً لا يصلي وراء أحد .. ولا يتلقى الأمر من أحد .
ـ لا أفهم ..
ـ من أجل هذا كان لا بد أن أخطب في الناس في كل مكان .. في الشارع وفي البيت وفي داخل الكنيسة أيضاً .
ـ وكيف تدخل الكنيسة ؟
ـ إنني أدخلها لأنها مكان عام .. وعلى كل واحد منا أن يقاطع القسيس ويلفت الناس إليه .. ومن هنا فقط ينبع الإيمان بنا والكفر بغيرنا ..
ـ لم أفهم .
ـ اعرف أنك لم تفهم .. ولن تفهم إلا بعد وقت طويل ..
ـ الوقت الطويل يجب أن تقضيه في السجن . لأنك كافر بالمسيحية وبالأديان الأخرى » .

ودخل جورج فوكس السجن أكثر من مرة . بل إنه انتقل من سجون بريطانيا التي ولد فيها ، إلى سجون أوروبا وأمريكا .. ولكن تعاليم جورج فوكس يمكن أن تجدها في الرسالة التي بعث بها إلى حاكم جزر بارابادوس وإلى هذه المناقشة التي دارت بينه وبين قاضي

إحدى المحاكم البريطانية والتي انتهت عادة ـ وتنتهي دائماً ـ بسجن جورج فوكس . وقد أطلق فوكس على نفسه وعلى التابعين له اسم «جماعة الأصدقاء» أو «إخوان الصدق» أو «إخوان الصفاء» أو «أطفال النور» .

ولكن هذه الجمعية اكتسبت اسماً آخر هو « كويكرز » وقد أطلق هذا الإسم القاضي بنيت ، وهو يسخر من جورج فوكس . وكلمة « كويكرز » معناها « المرتجفون» أي الذين يرتجفون أمام العدالة .. أو المرجفون أي الكذابون المضللون . (وفي القرآن الكريم : «والمرجفون في المدينة » أي الكذابون . والقرآن أيضاً يقول : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين» (والرجفة أي الاهتزاز والخوف والرعب) وبعد أن حمل «أبناء النور» هذه التسمية استطاع فوكس أن يحورها فيقول إن العدالة ترتجف أمام كلمة الله . وأنهم إذا اجتمعوا وفي مكان واحد كان النور في داخلهم يصيبهم بالرجفة . وأن المرجفين يرتجفون أمامهم .. ولم تعد هذه الكلمة مخجلة لأحد .

وجورج فوكس هذا ابن لعامل صغير يشتغل في النسيج . وجورج فوكس قد تعلم في أحد محلات الأحذية . ومن العجيب أنه وهو طفل صغير كان يقول : كل شيء جزمة لشيء آخر . أي أن كل شيء يدخل في شيء ويعتمد عليه وكل معنى له قالب . ولا بد من القوالب والناس نوعان : أقدام وأحذية . أي معان وقوالب لها .

وكان الناس يضحكون من هذه التعبيرات الصحيحة ، غير المهذبة أو غير الشاعرية .

وقد أحس جورج فوكس أنه مختلف عن الناس . وأن الذي يشعر

به في أعماقه لا يدري به أحد . ولكن الأنبياء والرسل كانوا يشعرون مثله . أو يتعذب مثلهم ، بنفس الطريقة ، ولكن ليس بنفس الدرجة . فما الذي يحس به الأنبياء والرسل ؟ إنهم عن طريق التأمل الداخلي يرون النور في أعماقهم «فالنور الذي في أعماق أي إنسان أقوى من نور الشمس . أعمق من نور الشمس . أهدأ أنعم أرق . إن هذا النور هو الله . والله لكل الناس . وكل إنسان يستطيع أن يهتدي به . وأن يشعر بقوته القاهرة» . ولكن كيف ؟

يقول جورج فوكس في «يومياته» التي نشرت بعد وفاته : إن النبي أو الرسول يساوي المئات من الناس الأصفياء . نعم . ولكن إذا جلس مائة أو ألف من الناس وأطالوا النظر في نفوسهم في صمت . في تركيز تام فإن نور الله يتجلى لهم جميعاً كأنهم قلب واحد . وكأنهم جسد واحد .. وكأنهم نبي أو رسول .

ولذلك فإن جماعة «المرتجفين» هؤلاء ليست لهم طقوس ولا صلوات ولا تراتيل ولا مزامير ولا بخور ولا عطور ولا طبول ولا موسيقى . بل إن الموسيقى حرام والمسرح والغناء والرقص . يكفي أن يجلسوا معاً في صمت . ويقوم «الكاتب» ـ أي الراهب الأكبر أو القس الأعظم ـ بترتيب جلوسهم وجمعهم في مكان واحد . ثم عليه أن يتركهم وحدهم . يصلون في صمت . كل واحد يصلي في هدوء وصمت . والصلاة ليست حركات . وإنما الصمت صلاة . والتركيز عبادة . والنور طهارة مطلقة . ولذلك سموا بالأطهار أيضاً ، أو بالطاهرين الأصفياء ومسموح لهم أن يقرأوا الكتاب المقدس . والكتاب المقدس هو «كلمة» الله . وليس «الكلمة» الوحيدة لله .

وفي أوائل هذا القرن قالت الزعيمة الدينية مرجريت فل : نحن

نقرأ أن هذا ما قاله المسيح . وهذا ما قاله الرسول أو القديس . ولكننا لا نسأل أنفسنا وما الذي قلناه نحن ؟

ثم تجيب هي نفسها بقولها : إننا لصوص النصوص . فنحن نسرق المعاني من الكلمات . ونحفظ الكلمات ونعيدها إننا لصوص . وهنا لصوص آخرون . وهم الذين يسلبون الكلمات عظمتها ويعطونها للكنيسة أو لرجال الكنيسة فالله لم يعط عظمته لأحد . والله لم يجعل لنا نائباً عن الأرض . وإنما أودع كل شيء كلماته .

ويرى جورج فوكس : أن الروح العظمى .. أن روح الله إنما نحن قادرون على استحضارها إذا كنا معاً وإذا كنا في صمت .. في هذا الصمت الجليل تخرج منا وتطل علينا روح الله ونوره الباهر .

وبذلك اختلف فوكس عن كل الكنائس الأخرى . واصطدم بها . وأعلنوا أنه كافر . واستعدوا عليه السلطات الدينية والدنيوية . فدخل السجن ومن ورائه أتباعه بالألوف . ومات منهم في السجون مئات دون أن تتراخى لهم عزيمة ، أو يخفت لإيمانهم نور ..

ويتساءل جورج فوكس ومن بعده بمئات السنين مرجريت فل فتقول : ما هو المرض ؟ المرض هو أن ينطفئ النور في داخلك . فإذا أظلمت النفس ضاع الطريق والهدف أمامك .. ما هو المرض ؟ المرض هو أن يكون هناك تمزق داخلي يؤدي إلى اضطراب خارجي .. إلى شكوك إلى وسوسة .. إلى شلل وهذا النور هو الصدق . والكذب هو الظلام . والإيمان هو الشفافية المباشرة حتى لا تكون حواجز أو وسطاء بينك وبين الله .. أو أحد من الناس ..

وتقول مرجريت فل : لا تضعوا على لساني كلاماً لم أفهمه . لا تضعوا على لساني ظلاماً لست مصدره ..

وليس «لجماعة الأصدقاء» نص مكتوب ولا كتاب مقدس ، إلا الكتاب المقدس نفسه ..

وقد حاول بعض الذين تعذبوا كثيراً أن يجعلوا لقاءاتهم سراً . فرفض فوكس ومن بعده كل زعماء «المرتجفين» بل رفضوا أن تكون لهم كنائس أو مدارس أول الأمر . ولكنهم الآن يتعبدون ويساعدون الفقراء المرضى وجرحى الحروب الأهلية في أمريكا والحرب الأولى والثانية والحروب الصغيرة في كل مكان . حتى ظن بعض الناس إنها جمعية خيرية وليست جمعية دينية ، أو ليست تبشر بدين جديد ، لا يتفق مع كل الأديان ، وإنما يختلف معها منذ أول كلمة إلى مجرد رفع الإصبع .. فمن طقوسهم رفع الإصبع عند السؤال والإجابة . ثم إنهم ينادون بالبساطة والتبسط ويكرهون الكلفة والمجاملة . فالواحد لا يقول للآخر : حضرتك أو سيادتك أو معاليك .. أو نيافتك أو قداستك وإنما يقولون : أنت ..

ويتبسطون في الملابس أيضاً . ويكرهون الأبهة والفخامة والبهرجة .

ويرون أن الله خلق الناس سواء . فلا فرق بين الأبيض والأسود . أو الغني والفقير . لذلك أطلق كل واحد منهم ما يملكه من عبيد وأرقاء ..

ثم إنهم انتشروا وسيطروا بعد ذلك على ولايات أمريكية كاملة وحاربتهم ولايات أخرى كثيرة وأفسحت لهم مكان الصدارة في السجون والمستشفيات العقلية .

وكانت جماعة «المرتجفين» يدعون أول الأمر إلى الهدوء والسكينة . وأن يتعادل الإنسان : داخله وخارجه . وألا يجعل جسمه غليظاً كثيفاً يحجب عنه النور المنبثق من أعماقه ، نور الله وبعد ذلك تحولوا إلى

الدعوة إلى السلام التام . لا حروب لا خناقات . لا أحقاد لا كراهية .
ولكن اضطرتهم الحكومات إلى الإعتراف بالقانون الذي يحمي الناس
من الناس . والذي يضع سياجاً بين أطماع وأحقاد الناس . ولكنهم في
نفس الوقت وقفوا ضد الحروب .

وكانت عندهم مشكلة : كيف يقسم الآن أمام القاضي أن يقول
الحق ولا شيء إلا الحق ؟

إنهم يرفضون أن يقسموا على شيء لأن القسم معناه أن هناك
حقيقتين وهم يؤمنون بأنه لا توجد إلا حقيقة واحدة .

ثم إن المسيح عليه السلام قال في إنجيل متى : لا تحلفوا البتة !
(٥ - ٣٤) .

وأدخلوا السجون . ولم يخالفوا هذه الآية المقدسة . ويبدو أنهم في
السنوات الأخيرة قد تراجعوا عن الكثير تراجعوا عن تحريم الموسيقى
والغناء والمسرح والسينما والتليفزيون . وتراجعوا عن التشدد في تطبيق
« الصمت المقدس » فهم يتكلمون عندما يقرأون . وإن كانوا لا يؤمنون
برجل واحد يسوسهم ويسودهم . فهم جميعاً : سواء وسادة . ولا فرق
بين من يجلس في مواجهة الناس . وبين الناس .

وأكثر من ذلك أن كل طقوس المسيحية والأديان الأخرى يؤدونها
في صمت : الركوع والسجود والتناول والتعمير والإنشاد .. كل ذلك
يتم بلا شفتين . ويقول فوكس : « من كانت شفتاه في فمه فليس واحداً
منا فالشفتان هناك في الأعماق تنفرجان وتنطبقان دون أن يراهما أحد ».

وفي رواية كتبها أرنولد كيرواك عنوانها « المرتجفون لا يرتجفون » . في
بعض صفحاتها يقدم لنا تمثالاً من الحجر الأسود قد عثر عليه في
اليونان . التمثال ليست له معالم غير عادية . ولكنه تمثال دقيق المعالم .

ولم يهتد أحد إلى معنى هذا التمثال . فقد عرضوه على رجال الآثار . ثم على رجال النحت . ثم على أحد تجار التحف . لا أحد يجد له صفات غير عادية . ولذلك كان رخيص الثمن . ولكن واحداً من « المرتجفين » لاحظ في أحد الأيام أن هذا التمثال إذا وضع في الظل أو في الظلام انطبق جفناه . وفجأة يخرج منه شعاع من النور . وتكون النار في الناحية الأخرى من النافذة التي يوضع إلى جوارها . ولاحظ أن التمثال إذا اقترب منه أحد انقطع النور . وإذا تكلم معه أو حوله أحد ، فإن النور ينقطع ولم يهتد أحد إلى معنى هذا النور .. ولكن في نهاية المسرحية نجد أن البطل يجلس في الظلام إلى جوار التمثال مقلداً صمته وهدوءه الشامل وفي هذه اللحظة الصامتة الطويلة يخرج النور من رأس بطل الرواية . والمعنى هو : أن الصمت والظلام هما منبع النور في السماء وفي النفس .. وكلما طال صمتك ، صفا روحك ، وضاعت نفسك وكنت أقرب إلى الله ، أو إلى الحقيقة التي هي الله والتي ليست حكراً على أحد من عباد الله !

بُقَع سَوداء في جِلدِ النّمُور ..

انظر إلى السماء وقل أي شيء قل إنها قطع من الحجارة الملتهبة أو الباردة ، قل إنها بعيدة ولا فائدة منها لأحد ، قل إن الإنسان سوف يصل إليها يوماً ما . وسوف يجد متعة في اختراع وسائل الوصول إليها ، فإذا نزل عليها فسوف يجدها كالأرض . وسوف يواسي الإنسان نفسه بأنه يبحث عن أصل المادة وعمر الكون وسبب الأمراض ومعنى الحياة .. وقل إن الإنسان محكوم عليه أن يبدد أمواله في أشياء أخرى لا تفيده . قل إن مئات الملايين من سكان الأرض لا يجدون الطعام . بينما طعام رائد الفضاء الواحد يتكلف مئات الألوف من الدولارات .. أو أن تراب جزمته قد كلف أمريكا وحدها ألف مليون دولار ..

أغلق النافذة في وجه السماء . أطبق عينيك ولا تقل شيئاً . وانشغل بأي شيء آخر . العب في عينك . إنك دون أن تدري قد وضعت إصبعك على إحدى المعجزات . هذه العين . اسأل أي طبيب رمد عن العين . عن إنسان العين . ولا تلمه إذا تحول كلامه إلى شعر . إنه حائر في خيوط العين في أجسامها الزجاجية .. كيف ترى كيف لا ترى ؟ كيف تتخيل ؟ كيف تبني قصوراً وجنات لا وجود لها .. ما هي الألوان .. ما هذا الجمال في العين .. ما هذا التعبير في العين .. ما الذي

يحدث عندما ترى ما يسرك ؟ وما معنى السرور ؟ ما الذي يحدث عندما ترى ما يغضبك ؟ وما هو الغضب ؟ وإذا سمعت طرقاً على الباب أيقظك من التفكير في معنى العين ؟ فما معنى أنك سمعت ؟ كيف سمعت ؟ اسأل طبيباً للأذن عن هذا العضو الصغير .. وإذا راح يتغنى بمعجزات تراكيبه .. وتحول من طبيب إلى مطرب ومن مطرب إلى درويش فلا تلمه . فإن الذي يعرفه أضعاف الذي تعرفه ، والذي يريد أن يفهمه في تكوين الأذن والعين .. والخلية الحية .. والحياة .. ومعجزة المعجزات : ذلك الحيوان المنوي الضئيل الذي ينقل صفات الإنسان من ألوف السنين وينقل صفات الأب والأم .. أين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟.. إلى الجنين في بطن أمه ؟ وما معنى بطن أمه ؟ وكيف يتكون فيه ؟ ومن الذي يتولى تكوين الجنين قطعة قطعة ؟. وكيف يتوالى ترتيبها ؟ من الذي يتولى بناء هذا الكائن الجديد ؟ من الذي يكمله ؟ من الذي يعلن أنه كمل وأنه يجب أن يولد ؟ وما معنى أن يولد ؟ وما معنى أن تحس به أمه .. ولماذا ؟ وما هي الأمومة وما هي الأبوة ؟

وإذا شغلتك نملة صغيرة عن هذه القضايا الكبرى ، فلا تتهم أحداً . فالنملة ليست صغيرة ، ولا رجلها صغيرة . ولا عينها صغيرة . إنها هي أيضاً معجزة في الحياة . وإذا شغلك هذا كله عن النظر إلى الشمس وإلى القمر .. وإلى السماء وإلى النبات .. فإن الذي يشغلك أصعب بكثير جداً من هذا الذي فوقك وحولك .. أو هكذا نقول لأنفسنا . لأننا لا نعرف من هذا الكون حولنا إلا القليل .. ولا نعرف من الكون الذي هو نحن إلا القليل . وليس تواضعاً من أحد أن يقول ذلك . وإنما هي الحقيقة .

والذي تراه اليوم حولك قد رأته الإنسانية من مئات الألوف من

السنين .. وقال الناس . أو لم يقولوا .. أو تنبه بعض الموهوبين منهم إلى شيء من ذلك . وحاولوا أن يفتحوا عيون الناس ، وآذانهم وقلوبهم . وعقولهم فتحوها بالمنطق . وانسدت هذه الفتحات بعدها بلحظات .. لتجيء عقول موهوبة وقلوب مؤمنة وتعاود فتح العقول من جديد .. وكل جيل يفتح العقل قليلاً . ويدفع الإنسان إلى الأمام شبراً أو قدماً .. وتاريخ الإنسانية طويل . وكفاح الإنسان من أجل أن يعرف لم ينته بعد ..

والقصة هي هي . والمشكلة واحدة ؟ والمعضلة لم تتغير ! ما هذا الذي ترى ؟ من الذي صنع هذا كله وكيف ومتى ولماذا ؟ وما نحن وكيف نكون أفضل ؟ وكيف يكون سلام بين الخيرين وكيف نقضي على الأشرار وما هذه الحياة وما بعدها ؟ ما الذي كان قبلنا ؟ ما الذي سيكون بعدنا ؟ من الذي يجيب عنا ، وعن هذه الأسئلة ؟ إننا لا نستطيع إلا أن نفكر إلا أن نعقل .. أي إلا أن نربط هذا بذاك . ثم نربط الكل في إطار واحد .. لكي تكون عندنا « فكرة » عن شيء .. أو أفكار عن أشياء .. أو نظرية لكل شيء .. أو مذهب لما كان ويكون وسوف يكون . وكل شيء بالعقل .

والذي عبد الأحجار من عشرة آلاف سنة لم يكن مخطئاً . فهذا أقصى ما يقدر عليه عقله .. والذين عبدوا الجبال والأنهار والذهب بعد ذلك بألوف السنين ، لم يكونوا مخطئين . فإن عقولهم لا تقوى على غير ذلك ..

إن عقولهم تحاول أن تعرف .. وهذا أقصى ما وصلت إليه . إن العالم الكبير نيوتن قد اصطحب كلبه الصغير إلى معمله عندما سمع صوتاً غريباً . ويبدو أن قطة قفزت فكسرت إحدى الأواني الزجاجية ..

وانزعج العالم الكبير . ولكن الكلب انطلق وراء القطة . الكلب وسيده يعيشان في وقت واحد . ولكن الذي يشغلهما مختلف . وقد عاشت الإنسانية ألوف السنين لا تهتم إلا بمطاردة الحيوانات الأخرى المخيفة .. وإلا بصيد الحيوانات . وإلا بالاختفاء من الوحوش الضارية في الكهوف .. وهذه الوحوش : الرياح والرعد والبرق والمرض والموت والطوفان والجفاف .

ولا أحد يلوم كلب نيوتن عندما طارد قطة . بل إنه يكون حيواناً غريباً إذا لم يفعل ذلك .. وقد وقفت الكلاب عند هذه المرحلة ، ولم تتطور إلى كائنات أكثر عقلاً وحكمة .. ولكن الإنسان تطور في فهمه لكل ما حوله .

وكل الذين نظروا إلى السماء من ألوف السنين قالوا شيئاً واحداً : إنها أعظم وأروع .. إنها جميلة جليلة .. ولكن ..

ولا بد من هذه الكلمة ولا بد من كلمات أخرى كثيرة بعدها : ولكن ما الذي أقامها هناك ؟ ومتى ؟ وإلى متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ ثم إلى متى نحن هنا ؟ ومنذ متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

وماذا بعد هذا كله ؟ وماذا قبل هذا كله ؟ وهل نحن وحدنا في هذا الكون ؟ وهل الكون كله من أوله لآخره قد ظهر لكي نراه أو لا نراه لكي نتذكره أو ننساه ؟

العالم الكبير والطفل الصغير يقولان شيئاً واحداً : الله خلق كل شيء .

والعالم عنده ألف دليل ، والطفل ليس عنده دليل واحد . والإثنان لم يتجاوزا الحقيقة . فالله خلق كل شيء . وإلا من أين جاءت ؟. وكيف جاءت ؟

الله خلقها . كيف ؟ لا نعرف .. ولا أحد يعرف . وعليك ـ إذا أردت وإذا استطعت ـ أن تعرف . وتاريخ الإنسانية منذ كانت إلى أن تنتهي ـ ولا بد أن تنتهي ـ محاولة مستمرة لمعرفة أكثر وأعمق .

عندما رأى يوليوس قيصر أن أحد رجاله قد قتل أمامه . جاءه طفل من أقاربه وقال : فلان قتل !. وقال يوليوس قيصر : فلان قتل !

هذه حقيقة . ولكن أسباب القتل يعرفها يوليوس قيصر فقط .. أما الطفل فلا يعرف . ثم إن هذه الجريمة هي «فعل كامل» . أي أن فلاناً أمسك سيفاً وقتل فلاناً . انتهى هذا الفعل من أوله لآخره .. ولكن خلق هذا الكون ومعرفته ليسا فعلاً كاملاً ، وإنما فعل مستمر ، نرى أوله .. أو نرى لحظات منه ـ تحولات منه ـ ولا نعرف له نهاية .. بل ولا نعرف له بداية ..

وما نراه واحد في كل العصور .. ولكن شكله ولونه وحجمه ومعناه يختلف من طفل إلى رجل ، ومن عصر إلى عصر .. ومن شعب إلى شعب . ومن طبيب إلى مهندس إلى فلاح إلى شيخ إلى قسيس إلى كافر إلى مؤمن ..

وفي كل عصر ظهر أناس ملهمون يرون أوضح ويسمعون أعمق .. أناس بشر . ولكن لهم قدرات خارقة على الفهم والإفهام . وهداية الناس إلى خير الناس . وكل واحد منهم يدفع قومه إلى الأمام خطوة ..

وكل الجهود الإنسانية هي محاولات مستمرة لكي يرى الإنسان أوضح ، ويفهم أكثر ، ويقترب من المعنى البعيد جداً ، والهدف البعيد جداً ، والله القريب جداً .. لأن الله في كل شيء وكل شيء .. حكمته في كل ما نلمس في أجسامنا وفي كل ما حولنا .. والذي

يبحث عن الله ، لا يذهب بعيداً . وإذا ذهب بعيداً فلكي يعود أصفى عقلاً ونفساً .

ومحاولات الموهوبين والمرسلين والأنبياء كانت كثيرة شاقة . تعذبوا من أجلها . ولكنهم صبروا . وسجل لنا التاريخ صراعهم من أجل أن يلمس الناس .. الكون . الله . من أجل أن يكون الناس أكثر سماحة وزهداً وسلاماً مع النفس ومع الغير .

وقد دار رأسي إلى كل اتجاه في القديم والجديد .. في الشرق والغرب .. ومضت سنوات لا أجد شيئاً فوق كتفي .. وكنت كالذي يجلس تحت بيت بلا سقف . تحت شمس بلا ظل وبين الحين والحين أمسك شيئاً أتوارى به ، وأتوارى منه أيضاً . فإنه لا يقنعني ولا يريحني . ولا يعطيني ما أحتاجه عندما أكون وحدي . فقط عندما يكون الإنسان وحده ، يكون مع كل معجزات الله .. انظر إلى إصبعك .. إلى جلدك .. إلى ما تحت جلدك . كلها مفردات محدودة في الحكمة الإلٰهية .. ما هذا الذي يجعلك تقول : آه .. لم تنظر إلى أعلى .. ليس إلى السقف ولا إلى السماء .. ولا إلى النجوم ولا إلى الشمس والقمر .. إلى ما وراء ذلك !

وإذا جاء المرض وإذا جاء الموت .. وإذا وجدت أناساً عن طيب خاطر يعطون .. وأناساً عن سماحة نفس يزهدون .. وإذا وجدت من يصنع الخير بلا مقابل .. وإذا وجدت الصفاء على وجه الميت .. وإذا دفعت مالاً ولم تجد الراحة .. وإذا قتلت غيرك ولم تجد الأمن .. ومن هذا كله تجد قوة في داخلك تدفعك إلى أعلى ، كما يندفع الماء من نافورة .. لتقول : آه .. أو الله .. أو يا الله !

وكنت كلما تقلبت أكثر ، وقلبت أكثر ازداد أرقي وقلقي ..

وأيقنت أنه لا راحة لي بعد ذلك . وأنني اخترت العذاب ، عندما قررت الخلاص منه ، وأنني اشتريت الهوان عندما قررت الاعتزاز بما قرأت وفكرت وكتبت .. ولا أقول ، ولا أحد يقول ، إنه تصفح كل الكتب ، ولا عاشر كل المذاهب ، ولا أقام تحت كل القباب . ولكني أمضيت من عمري المحدود ، سنوات طويلة ، أضعتها .. أو أضاعتني ، بددتها ، بددتني .. مسحتها ومسحتني . وخرجت كما دخلت أكثر تعباً ، وأعمق حيرة . وكأنني هربت من نباح الكلاب إلى عرين الأسود ..

ولا ألوم أحداً . فقد خلقني الله هكذا . وأنا ضحية لتكويني . وأحاول أن أتخلص من الذي يصعب الخلاص منه . ولا يزال الإنسان يحاول أن يخلص نفسه ، ويتخلص منها ، حتى يكون له تكوين آخر .. ربما أفضل .. ربما أسوأ .. وهذا فقط الذي أجدني مسؤولاً عنه .. ولا أقول أيضاً إنني غيرت جلدي ليت ذلك ممكن . ولكني تغيرت .. اتجهت إلى حيث كان يجب أن أتجه .. واستدرت إلى حيث الطريق الصحيح . واهتديت . اهتديت إلى أن أقلب من جديد في تلك الصفحات التي حلقت فوقها ، ولم أمش عليها أو إلى جوارها .. ورأيتها بعيني عصفور ، ولم أرها بعيني دجاجة .. ولا أقول إن العمر يتسع لكل ما لا أعرف . فلا عمري ولا ألف ألف عمر يتسع لأعرف ما لا أعرف في هذه الحياة .. فما بالك إذا كان الذي يشغلني هو هذه الحياة وما قبلها وما بعدها .

والذي أعرفه قليل .. ولذلك فأنا سعيد به .. والذي أضيفه كل يوم هو أيضاً شيء قليل . وكأني بذلك أضيف نسمة هواء وقليلاً من الظلال والماء الحلال ونور السماء .. وتحت هذا المأوى الروحي أتمدد

آمناً حالماً في مزيد من راحة البال .. وما راحة البال إلا خاتمة الطريق الذي يبدأ بالله وبكتابه ورسوله ..

.. ولكن أين أنا من هذا الطريق ؟ إن الذي قطعته قليل .. ولكن الذي قطعته قبل ذلك كان طويلاً شاقاً .. في كل عصر وكل أرض وكل دين وكل مذهب .. وكل طريقة .. وكل نظرية .. ووجدت الكثير إلا الراحة ، وسمعت الدوي إلا وجداني ، وأرهقت يديّ وعينيّ وقلبي .. فأنا إحدى ضحاياي .. وأنا المريض وأنا الداء .. وأنا القاتل والقتيل ..

لو أحد قال لي يوم أمسكت مئات الكتب في ديانات الصين والهند أبحث لي عن قلب كبير : اترك هذه فعندك ما هو أعظم وأروع وأقرب ! .

لو أحد قال لي : ما هذه الساعات تدق فيها الرخام البارد في المعابد والمغارات .. ما أبعدها عن نفسك .. ما أغربها عن جوهرك ..؟

لو أحد قال لي : ارفع عن رأسك هذه الأكداس من الورق بكل لغة .. افتح نافذتك وشم الهواء .. وسائل نفسك : كيف شممت وأين ذهب الذي ملأ صدرك وما هذا الذي اسمه صدرك ؟

لو أحد قال لي : اخلع هذه الملابس إنها ليست لك .. انزع هذه الكلمات إنها ليست منك .. اخفض صوتك إنها ليست حنجرتك .. اكسر أنفك إنه ليس في وجهك ..

ولكن أحداً لم يقل . ولو قال ما رجعت عن الذي فعلت .. لكي أتجه بقوة وإيمان وصدق إلى ما أنا فيه . فما الذي أنا فيه ؟

إنني جئت متأخراً إلى كل شيء .. إنني أستريح إلى كتب أقرؤها وأمنع نفسي من الندم على أنني تركتها سنوات وانشغلت عنها بغيرها ..

ولكني أحمي نفسي من ندمي . فأنا لا أريد أن يتحول إيماني إلى سجن أكتوي فيه .. وإنما إلى «مصحة روحية» إلى «محجر وجداني» . وقد وهبني الله هذا الصبر على نفسي وما كان لها وما كان فيها .. ولست الطبيب لمريض هو أنا .. ولكني أستعين بعدد عظيم من أطباء النفس والجسد .. وأعطيهم كل ما أعطيته لفلاسفة الغرب وكهنة الشرق .. أعطيهم قلبي وعقلي .. وما شفائي إلا بالإيمان بالله وبكتابه ورسوله . ولا أظن هذه الراحة التي تتمشى بيني وبين نفسي إلا من هذا الإيمان .

وإذا كنت في بعض الأحيان أهرب من الطبيب .. وأتكاسل عن الذهاب إليه وأتجاهل مواعيد الدواء .. قبل وبعد وأثناء الأكل فما ذلك إلا أنني لا أستطيع ـ ولا أحد ـ أن يتخلص من جلد قديم .. هو العمر كله . !

إنني مثل هذا النمر الأرقط الذي تتحدث عنه الأسطورة الأفريقية . فهم يتساءلون لماذا كان النمر أرقط .. أو كانت له هذه البقع السوداء في جلده الذهبي ؟

ويقال إن النمر كانت له صديقة اسمها : النار .. كان يذهب إليها كل يوم .. ويدور حولها .. فإذا رأته النار تعالت وأطلقت ألسنتها ناحيته كأنها تريد مصافحته .. وفي أحد الأيام قالت زوجة النمر : ألا ترى أنك هنت على هذه النار .. إنك تزورها كل يوم ولكنها لا تزورك ..

وذهب النمر يقول للنار : لقد زرتك كثيراً . فلماذا لا تتحركين لزيارتي ؟

وقالت النار : أزورك . ولكن بشرط .

وقال النمر : أقبل هذا الشرط.

قالت النار : أن تفرش الطريق إلى الكهف الذي تعيش فيه بأوراق الشجر .

وقال النمر : أفعل ذلك .

قالت النار : بشرط .

قال : أقبل الشرط .

قالت النار : أن يكون ورق الشجر أصفر جافاً !

وفرش النمر الطريق إلى الكهف بورق الشجر الجاف .. وانتظر في الكهف . وهبت الريح .. وانطلقت النار تأكل الورق الجاف حتى وقفت على باب الكهف . وأدرك النمر أنه هالك حتماً . ففر من داخل الكهف .. وعلقت النار بجلده الذهبي .. وليست هذه البقع السوداء في جلده إلا من آثار النار .. إلا من آثار التجربة .. التي هي محاولة وخطأ وعظة بعد ذلك ..

ولا أحد بلا بقع قديمة أو جديدة في جلده .. فكلنا حيوانات .. والعصمة لله ولرسوله !

المحتويات

صفحة

كتب للمؤلف

١ - دراسات :

١ - وحدى مع الآخرين	:	الطبعة الثانية
٢ - عذاب كل يوم	:	الطبعة الثانية
٣ - طريق العذاب	:	الطبعة الرابعة
٤ - مع الآخرين	:	الطبعة الثالثة
٥ - الوجودية	:	الطبعة الثانية
٦ - يسقط الحائط الرابع	:	الطبعة الرابعة
٧ - كرسى على الشمال	:	الطبعة الثانية
٨ - ساعات بلا عقارب	:	الطبعة الثالثة
٩ - قالوا	:	الطبعة السادسة
١٠ - وداعا أيها الملل	:	الطبعة الرابعة
١١ - ألوان من الحب	:	الطبعة الثالثة
١٢ - مدرسة الحب	:	الطبعة الثالثة
١٣ - من نفسى	:	الطبعة الثالثة
١٤ - شارع التنهدات		
١٥ - الخبز والقبلات	:	الطبعة الثالثة
١٦ - الحائط والدموع	:	الطبعة الخامسة

١٧ – الذين هبطوا من السماء : الطبعة السادسة
١٨ – يوم بيوم : الطبعة الثالثة
١٩ – يا من كنت حبيبى : الطبعة الثالثة
٢٠ – من أول نظرة : الطبعة الثالثة
٢١ – وكانت الصحة هى الثمن : الطبعة الثانية
٢٢ – أرواح وأشباح : الطبعة الثالثة
٢٣ – الذين عادوا إلى السماء : الطبعة الثانية
٢٤ – قلوب صغيرة : الطبعة الثالثة
٢٥ – شىء من الفكر : الطبعة الثالثة

٢ – قصص

٢٦ – بقايا كل شىء : الطبعة الثالثة
٢٧ – عزيزى فلان : الطبعة الثالثة
٢٨ – هى . . وغيرها : الطبعة الثالثة

٣ – رحلات

٢٩ – حول العالم فى ٢٠٠ يوم : الطبعة الثالثة عشرة
٣٠ – اليمن . . ذلك المجهول : الطبعة الثانية
٣١ – بلاد الله . . خلق الله : الطبعة الثالثة
٣٢ – أطيب تحياتى من موسكو : الطبعة الثانية
٣٣ – أعجب الرحلات فى التاريخ: الطبعة الثالثة
٣٤ – غريب فى بلاد غريبة
٣٥ – لعنة الفراعنة : الطبعة الثانية
٣٦ – أوراق على شجر

٤ – مسرحيات

٣٧ – الأحياء المجاورة !

٣٨ – حلمك . . يا شيخ علام

٣٩ – مين قتل مين ؟

٤٠ – جمعية كل واشكر !

٤١ – كلام لك يا جارة

٥ – مترجمات

٤٢ – الإمبراطور جونزأونيل : (ديرنمات)

٤٣ – رومولوس العظيم : (ديرنمات)

٤٤ – هبط الملاك فى بابل : (ماكس فريش)

٤٥ – أمير الأراضى البور : (تسى وليامز)

٤٦ – فوق الكهف : (أرثر ميللر)

٤٧ – بعد السقوط : (أربع مسرحيات) – لديرنمات

٤٨ – هى . . وعشاقها : (ديرنمات)

٤٩ – الشهاب : (جيردو)

٥٠ – سواد عينيها

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

